المقدمة

تعتبر الأسواق من أبرز التنظيمات التجارية في تاريخ أوروبا العصور الوسطى، بسبب الدور المهم الذي لعبته في انتعاش الاقتصاد . خاصة بعد أن تحول المجتمع الوسيط من مجتمع قروي يعتمد على الأرض فيما عرف بنظام الإقطاع إلى مجتمع تجاري بحت تشكل الطبقة البرجوازية فيه العماد لهذا المجتمع التجاري، بعد أن سعت هذه الطبقة إلى تحطيم نظام الضيعة الذي كان يعتمد على الاكتفاء الذاتي من الإنتاج .

اتخذت أوروبا منذ نهاية القرن الثامن الميلادي، طابعا زراعيا بحتا حيث اعتمدت جميع طبقات المجتمع على ما تخرجه الأرض من خيرات، ونتج عن ذلك اضمحلال الصناعة والتجارة وأضحت الزراعة هي أساس الحياتين الاقتصادية والاجتماعية لأوروبا، وظل هذا الوضع قائما طوال الفترة الممتدة من القرن الثامن إلى أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، حيث لم تبق إلا التجارة المحلية فقط .

ولكن شهدت أوروبا أواخر هذا القرن تغيرا كبيرا فعادت طبقة التجار إلى الظهور وأخذت على عاتقها تغيير هذا الوضع . ونجحت في تحويل المجتمع الأوروبي من مجتمع زراعي إلى مجتمع تجاري خاصة وأن هناك عوامل عديدة أخرى أدت إلى انهيار النظام الإقطاعي منها ظهور المدن والقومونات التجارية، وبعد أن كان اليهود هم الوحيدون المشتغلون بالتجارة في أوروبا العصور الوسطى بسبب تحريم الكنيسة للتجارة نظرا للمعاملات الربوية التي سادت في كثير من معاملاتها .

انقلب الوضع رأسا على عقب في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي بسبب قيام الحروب الصليبية التي أسهمت في تضاعف النشاط التجاري للمدن البحرية وبخاصة الإيطالية فصار تجار إيطاليا ينافسون اليهود الذين بدأوا يتوارون عن مسرح الأحداث التاريخية منذ ذلك الوقت خاصة بعد أن أخذ حكام أوروبا في طردهم من أراضيهم .

لعبت التجارة الخارجية دورا كبيرا في انتعاش حجم المعاملات فكان تأثيرها أقوى من تأثير التجارة المحلية الداخلية ، فالأولى صاحبة الفضل في صبغها بالصبغة الدولية أو العالمية.

وتبرز أهمية الأسواق في أوروبا في أنها مثلت البوتقة التي احتضنت هذا النشاط وعملت على رواج التجارة فلقد نشأت تلك الأسواق وصارت وفق أنظمة دقيقة منحتها القدرة على البقاء والتطور لتلائم مثل هذا التداول الضخم للتجارة الخارجية والداخلية على حد سواء، فقد عمت أوروبا العصور الوسطى أسواقا كبيرة شكلت محور التجارة ومقر التجار في ذلك الوقت .

غير أن هذه الأسواق الكبرى لم تنبت من فراغ بل إن أوروبا العصور الوسطى انتشرت بها أسواقا محلية منذ القرن التاسع الميلادي، الهدف من ورائها إمداد المناطق التي نشأت فيها بالاحتياجات الضرورية للحياة اليومية للسكان ، وكانت هذه الأسواق تتواكب مع ظروف الحياة الإقطاعية التي سادت أوروبا في تلك الفترة .

غير أن التطور الذي شهدته أوروبا منذ نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ، أدى إلى تطور التجارة ، ووجود تبادل دولي للبضائع بين الشرق والغرب الأمر الذي أدى إلى زيادة الدخل لبعض الدول الأوروبية بشكل لم يسبق له مثيل مما جعل الأسواق المحلية تعجز عن أن تستوعب مثل هذا النشاط وأن تتوارى إلى الظل وأن تشكل صورة باهتة أمام هذا التطور، لذا أصبحت حاجة أوروبا ملحة لوجود أسواق دولية كبرى لتغطي حجم هذا التبادل ولتستوعب كذلك حركة الإحياء التجاري التي شهدتها أوروبا منذ القرن الثاني عشر الميلادي ، ومن هنا تكونت أسواق كبرى وصارت أكثر انتعاشا من ذي قبل مثل الأسواق اللومباردية Lombardy ، وكذلك أسواق شامبني Champagne ، وأسواق الفلاندرز Flandres "الفلمنكية" .

وقد بلغت الأسواق الأوروبية قمة نشاطها التجاري في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، فصارت محط أنظار تجار الغرب في كافة أنحائه . ولما كانت هذه الأسواق تحتل هذه المكانة ، وتحتاج إلى دراسة متخصصة في المكتبة العربية ، لذا اخترت "الأسواق الدولية الكبرى في أوروبا العصور الوسطى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين" لتكون موضوعا لهذا الكتاب.

وتعتبر هذا الكتاب أول دراسة متخصصة ، حيث أن ما كتب باللغة العربية لا

يعدو أن يكون فقرات وإشارات ضمن كتب تاريخ الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى ، إلى جانب بعض من الكتب المترجمة عن اللغات الأجنبية مثل كتاب هنري بيرين عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في أوروبا العصور الوسطى ، وهذا لا يفي بالمطلوب في ما يتعلق بهذا الموضوع.

وقد قسم الكتاب إلى مقدمة ودراسة تحليلية لأهم المصادر ثم تمهيد وأربعة فصول وخاتمة ، وذيل بعدد من الملاحق التي تخدم موضوع البحث وثبت بالمصادر والمراجع التي تم الاستعانة بها .

تشمل المقدمة أهمية الموضوع وأسباب اختياره ، والدراسات السابقة ، والصعوبات التي واجهت الباحثة ، ثم دراسة تحليلية لأهم المصادر والمراجع الأجنبية والعربية التي أفادت الكتاب .

شمل التمهيد معالجة للأسواق المحلية والعوامل التي أدت إلى ضعفها وتراجع دورها أمام الأسواق العالمية .

أما الفصل الأول فتناول : العوامل التي أدت إلى نشأة الأسواق العالمية حيث عالج أولا انهيار النظام الإقطاعي ونشأة المدن متعرضا لأهمية الإحياء التجاري الذي شهدته أوروبا في ظل عودة ظهور طبقة التجار تلك الطبقة التي كانت مسئولة مسئولية كاملة عن نشأة المدن والإسراع في انهيار الإقطاع وتلا ذلك العامل الجغرافي وإبراز أهميته في نشأة الأسواق وما بلغته من تطور عظيم ، وبعدها تم دراسة دور الحروب الصليبية على بلدان العالم الإسلامي شرقا وغربا وكيف أنها كانت عاملا أساسيا في الثراء الذي شهدته أوروبا . ثم أوضحت انتعاش التجارة العالمية وأثرها البالغ في قيام الأسواق الأوروبية وانتعاشها .

أما الفصل الثاني : فكان عن أهم الأسواق الأوروبية العالمية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، وعالجت فيه الباحثة أولا : أسواق شامبني : وأوضحت موقعها وأثره على ازدهار الحركة التجارية والتطور التجاري والمالي الذي شهدته حتى أصبحت بحق "سوق مال أوروبا" ثم درست أسواق الفلاندرز "الفلمنكية" واثر موقعها كذلك على تطورها التجاري وأن هذا الموقع فرض عليها

الاتجاه إلى تربية الأغنام واستغلال أصوافها حتى تفوقت في صناعة الأقمشة الصوفية التي بلغت فيها شأوا عظيما جعلها تصل إلى أسواق الشرق . وبعد ذلك تناولت الأسواق اللومباردية ذات الموقع المتميز المطل على البحر المتوسط صاحب أقدم وأعرق الحضارات ظهورا في العالم مما جعلها تقوم بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب . ثم قدمت لدور الكنيسة في تدعيم الأسواق وصيانة الطرق والمواصلات وأخيرا تناولت أنواع المتاجر التي تخصصت فيها الأسواق الأوروبية ، والتي لم تقف عند حد المتاجر التي توافرت في الغرب ، وإنما تعدتها إلى كافة المتاجر التي أمكنهم الحصول عليها من الشرق.

أما الفصل الثالث : فهو عن تشييد الأسواق والنظم المتبعة داخلها ويشمل أولا : كيفية تشييد الأسواق والمعالم الرئيسية بها ، وعرضت فيه الباحثة إلى أن الأسواق لم تكن لتشيد إلا من خلال المنح والبراءات التي تجيز قيامها وإعطاء هذا الحق لبعض الأفراد الذين يتولون تشييدها وتجهيزها بكل الاحتياجات . وبعدها عرضت لمراكز إقامة التجار داخل الأسواق والتي تنوعت بين منازل وفنادق ومباني النقابات وغيرها . بعد ذلك عالجت نظام العمل بالأسواق وإيضاح المراسم العامة اليومية ، وطرق البيع ، والنداء ، والعرض ، وفحص البضائع ، وكيف أنها نظم لا غنى عنها داخل الأسواق . وأعقب ذلك دراسة عن محاكم السوق ومهامها . وبعد ذلك قدمت المعاملات المالية والتجارية داخل السوق والتي تنوعت بصورة كبيرة فشملت المقايضة ، والتعامل النقدي والتعامل الربوي، والضرائب والمكوس وهي معاملات لا غنى عنها من أجل خدمة التجار ومصالحهم داخل الأسواق.

أما الفصل الرابع : فهو عن النقابات ودورها في حماية التجار ورعاية مصالحهم بالأسواق حيث تم فيه دراسة الأصول الأولى للنقابات وتطورها ، عرضت فيه الباحثة لبداية ظهورها وأنواع النقابات واختصاصاتها وكيفية اختيار رؤسائها ، وقيامها بتحديد المصنوعات ، والشروط التي وضعتها لإتقان الصنعة . وبعد ذلك عرضت لتحديد طرق البيع وأنواع المكاييل والمقاييس والموازين . كما تناولت تحديد تكاليف الإنتاج وأسعار البيع حتى لا يظلم أي طرف ، وأعقب ذلك دراسة عن حماية تجار

السوق من السلطة الحاكمة بما حازته من امتيازات . أما الدور الاجتماعي للنقابات فقد عرضت فيه الباحثة لأهميته في رعاية أفرادها والمشاركة في الأعمال الخيرية وهو دور لا يقل أهمية عن دورها التجاري . ثم تلا ذلك عرض للعصبة الهانزية وأوضحت فيه بداية ظهورها وتطورها حتى شكلت قمة ما وصلت إليه النقابات في طور نموها .

وبعدها قدمت خاتمة أوضحت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة وأعقبها مجموعة من الملاحق المهمة التي تفيد الدراسة منها الخرائط والوثائق المتنوعة الخاصة بالأسواق ، وأخرى متعلقة بالامتيازات التجارية الممنوحة للتجار .

وتلاها قائمة المصادر الأوروبية والعربية والمراجع العربية والمعربة والدوريات والمقالات العلمية .

وأخيرًا أتوجه بالشكر للمولى عز وجل ، شكرا يليق بوجهه الكريم على أن أنعم علي بإتمام هذا البحث ، ثم أتوجه بالشكر الجزيل ووافر العرفان إلى والدي العزيزين على مساندتهما لي واحتمالهما الدائم لي ، وشكرا من قلبي لإخوتي الأعزاء على مطلق ما قدموه لي من مساندة وتشجيع دائم أعجز معه عن أن أعبر عما يجيش به صدري من مشاعر تجاههم جميعا ، وأشكر أخي الأكبر على ما أمدني به من تشجيع ومثابرة على البحث ، وأشكر أسرتي الكبيرة كلها على ما قدموه لي مع مطلق عرفان بالامتنان لهم جميعا .

أما جل امتناني وعظيم عرفاني ووافر شكري فأتوجه به إلى البحر الذي لا ينضب وينبوع الحنان الخالص ، صاحبة أعظم خلق شاهدته في حياتي كلها ذات التفاؤل الدائم التي علمتني المثابرة والطموح حتى نصل إلى أهدافنا في الحياة .. إلى معلمتي وأستاذتي الأستاذة الدكتورة/ عفاف سيد صبره أستاذ التاريخ الوسيط.

وفي النهاية أدعو الله العلي القدير أن يوفقني للصواب ، ويحفظني مما يذم أو يعاب ، فإن أصبت فمنه ومن فضله جل وعلا ، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان .

«رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا
رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا
رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ
أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»

صدق الله العظيم

[سورة البقرة : آية ٢٨٦]

الدراسة التحليلية

اعتمدت الدراسة على مجموعة كبيرة من المصادر الأصلية والتي تعالج التاريخ الاقتصادي بوجه عام وحركة الأسواق الدولية بوجه خاص ، وسنقدم دراسة تحليلية لأهمها:

أولا : المصادر التاريخية الاقتصادية :

(١) مجموعة وثائق سارتوريوس Sartorius[1]

حيث قدم سارتوريوس . ج. G .Sartorius كتابا تحت عنوان وثائق متنوعة أصلية عن الهانزا الألمانية وقام بنشره ليبنبرج .ج.م وصدر في هامبورج سنة ١٨٣٠ والتي تضمنت عددا من الوثائق المتعلقة بالنقابات وتطورها ، بل ظهر من خلالها كذلك أن مجموعة التجار المنضمين إلى Hanse لم يكن يسمح لهم بممارسة أي أعمال شغب أو إساءة للمواطنين أو للمدينة وإلا تعرضوا للعقاب ، بل للطرد من المدينة أيضا . مثلما حدث في ألمانيا عندما مارس رجال الاتحاد Hanse أعمالا مؤذية ضد مواطني بريمن Bremen ، وضد القادمين بسفنهم إلى موانيها الأمر الذي دفع أسقف كنيسة بريمن إلى التخلص منهم نزولا على رغبة المواطنين الذين أضيروا من تصرفاتهم . الأمر الذي أفاد البحث في إثبات أن النقابات لم تكن ذات سلطات مطلقة تماما ، وإنما كانت هناك رقابة دائمة عليهم من قبل السلطة تحكم تصرفاتهم .

كما تضمنت هذه الوثائق أيضا عددا من الاتفاقيات التجارية المهمة فيما يتعلق بتوحيد العملة ، مثل اتفاق توحيد عملة بين هامبورج Hamburg وليوبك Lubeck وأثر ذلك في تقوية تجارتها ، بل أثره كذلك في إظهار التعاون الوثيق بينهما بدلا من المنافسة التي كانت قائمة بينهما في تاريخهما المبكر . الأمر الذي أفاد البحث عند الحديث عن التعامل النقدي حيث ظهر من خلالها مزايا نظام العملة الموحدة .

إضافة إلى عدد من الوثائق المهمة المتعلقة بالبراءات الممنوحة من قبل الملوك للتجار والمدن كبراءة هنري الثاني Henry II (٥٤٠-٥٥٨هـ/١١٤٥-١١٨٩م) لليوبك Lubeck خاصة أنها حررتهم من بعض القوانين التي أضرت بتجارتهم

([1])Sartorius, G.F. Urkundliche Geschichte des ursprunges der deutschen Hanse, Ed. Lapenberg, J.M., Vol.11, Hamburg, 1830, P.8, 9, 12, 27, 29, 71.

كقانون حطام السفينة ، مما جعلهم لا يتعرضون لفقد تجارتهم عندما تتحطم سفنهم . وهو ما أفاد البحث عند الحديث عن الامتيازات التي منحت للتجار وتأمين تجارتهم كذلك. كما تضمنت هذه الوثائق امتيازات سوق ليوبك الممنوحة من قبل الملك فالديمار Waldemar (٥٩٩-٦٣٩هـ/١٢٠٢-١٢٤١م) والتي اشتملت على عدد كبير جدا من الامتيازات والإعفاءات الضريبية وغيرها من الامتيازات المتعلقة بالتجارة، مما أضاف للبحث الكثير من المعلومات عن النظم المتبعة داخل الأسواق.

ومن وثائق سارتوريوس Sartorius أيضا براءة فردريك الأول Frederick I (٥٤٧-٥٨٦هـ/١١٥٢-١١٩٠م) لليوبك Lubeck وبراءة فردريك الثاني Frederick II (٥٩١ – ٦٤٨ هـ/ ١١٩٤-١٢٥٠م) لليوبك أيضا والتي حررتهم من ضريبة المكس في كولونيا Cologne كما منع اتحاد كولونيا من عرقلة التجارة الخارجية . ومثل هذه البراءات وغيرها أضافت للبحث كثيرا من المعلومات المهمة عن الضرائب والمكوس داخل الأسواق . ومن الوثائق المهمة أيضا التي أوردها البراءة الخاصة بمنح رجال ليوبك Lubeck الحق في إقامة وامتلاك منزل في منطقة Riga ، مما أفاد البحث عند الحديث عن مراكز إقامة التجار داخل الأسواق .

(٢) ثورب بنيامين .Thorpe, B وكتابه القوانين والتشريعات القديمة لانجلترا والصادر في لندن سنة ١٨٤٠م[1] :

استفاد البحث من ثورب Thorpe الذي أورد عددا من الوثائق المتعلقة بالقوانين الخاصة بالحريات، والتي جاء في مقدمتها قانون الحريات في لندن London ، وهي مليئة بالقوانين المهمة المتعلقة بالمواطنين والتجار وطرق بيعهم وتنظيم عملية البيع داخل المدن وأسواقها بالتالي، حيث حددت هذه القوانين طرق البيع المصرح بها لكل من التاجر المحلي والأجنبي على حد سواء. والتي ظهر من خلالها حماية المواطنين من المنافسة الأجنبية، إلى جانب إيضاح حق تأسيس الأسواق داخل المدن. فقد أفاد البحث بصورة مباشرة عند الحديث عن طرق البيع داخل الأسواق والنظم المتبعة داخلها كذلك.

(٣) متى الباريسي Matthew of Paris وكتابه تاريخ انجلترا في جزئين

([1])Thorpe, B., Ancient Laws and Institutes of England, London, 1840, P. 462.

الصادر في لندن سنة ١٨٤٩[1] :

اعتمد البحث على كتاب متى الباريسي Matthew of Paris الذي أورد فيه كتابات مهمة جدا عن الربا داخل انجلترا، إذ أن المرابين الحقيقيين كانوا يتمثلون في رجال البنوك المسيحيين الرأسماليين الذين صار لهم عملاء كثر من الأغنياء والأقوياء في المجتمع من ذوي السلطة والنفوذ الكبير. بيد أن عدم شعبيتهم في انجلترا كانت بسبب عملهم كسماسرة تابعين للبابوية، وللفائدة الكبيرة التي يأخذونها على أموالهم المقرضة.

كما ظهرت من كتاباته التحايل الكبير الذي قام به المرابون من أجل إخفائهم ما يقومون به من ربا والتستر تحت عباءة التجارة. بل وقيامهم بالتظاهر بأن ما يقومون به هي أعمال تجارية مدعين بأن ما يقومون به ليس ربا.

كما أظهر كتاب متى الباريسي الشأن العظيم الذي بلغه المرابون داخل انجلترا حتى حققوا ثروات طائلة من ورائه، حتى سقط الجميع في شباكهم من مواطنين وقساوسة حتى الملك نفسه صار مدينا لهم بمبالغ ضخمة من المال مما خدم البحث عند الحديث عن القروض والتعامل الربوي والتحايل الذي كان يتم من أجل ذلك.

كما تضمن كتاب متى الباريسي الحديث عن الأسواق، والمخاطر التي كان يتعرض لها التاجر حتى يصل إلى الأسواق والمعارض، وأن هذه المخاطر التي تعرض لها التجار لم تقتصر على مخاطر الطريق فحسب، وإنما امتدت أيضا إلى داخل المعرض نفسه إذ كان من الممكن نتيجة لتقلبات الطقس وتغير اتجاهات الريح – أن يتعرضوا للبرد والمطر والجوع والعطش وتلطخ أقدامهم بالطين، بل وتعفن بضائعهم بسبب حمامات المطر الشديد.

كما اتضح أن مشاكل التجار داخل الأسواق لم تتوقف عند ذلك الحد، وإنما كانوا عرضه أيضا لأن يصدر الملك أوامره بإلغاء المعرض نفسه الذي جاءوا من أجله بعد ما بذلوه من جهد ومشقة إلى أن يصلوا إليه مما أضاف للبحث معلومات قيمة عن

([1])Matthew of Paris, English History, Vol. 1, 11, London, 1849, PP. 2, 410, 511, 272.

المخاطر التي تعرض لها التجار للوصول إلى الأسواق.

(٤) روجر من وندوفر Roger of Wendover's وكتابه زهور التاريخ والصادر في لندن سنة ١٨٤٩[1] :

استفاد البحث من روجر Roger، الذي قدم عرضا للتنظيم الحكومي للأوزان والمعايير، حيث أورد عددا من الوثائق المهمة المتعلقة بهذا الشأن متمثلة في تشريعات الملوك الخاصة بالموازين والمعايير، ولا يخفى ما لهذا الأمر من أهمية للأسواق والمعارض إذ لا يمكن إقامتها بدون ثبات قيمة كلاهما. ومن أبرز هذه التشريعات التي أوردها روجر Roger ، مرسوم الملك ريتشارد الأول Richard I (٥٨٥-٥٩٩هـ/١١٨٩-١١٩٩م) الذي ترجع أهميته في أنه يحاول تنظيم أنواع السلع مع ضرورة المحافظة على جودتها، فأكد من خلاله توحيد معايير وأوزان السلع عبر مدن ومناطق انجلترا، وحدد موازين التجار، وشدد على ضرورة عدم ممارسة أي غش أو خداع أو إعاقة لرؤية المشتري، ووضع عقوبات مشددة لمن يخالف أي من أوامره الصادرة في هذا المرسوم حيث إنه لم يكتف بمصادرة سلع البائع، بل إنه هدد بسجنه أيضا. لذا فقد كانت ذات أهمية كبيرة للبحث عند الحديث عن معايير الجودة، وتحديد الدولة والنقابات للأوزان والمقاييس والمكاييل المعمول بها داخل الأسواق. كما أورد لنا روجر عددا آخر من المراسيم الخاصة بهذا الشأن، والتي من أبرزها مرسوم الملك هنري الثالث (٦١٣-٦٧١هـ/ ١٢١٦-١٢٧٢م) الخاص بالموازين والمعاير، والذي ظهر من خلاله أن الأوزان والمعايير كانت تسري من خلال لائحة النقابة والمسئولين الملكيين وأن هناك العديد من الممارسات الحادة التي كانت تتم في حالة مخالفة الأوزان والمعايير، كما وقعت العديد من الغرامات ضد المخالفين، الأمر الذي أفاد البحث بصورة مباشرة خاصة أنه لا يمكن الحديث عن إقامة المعارض والأسواق دون الحديث عن تنظيم الأوزان والمعايير داخلها.

(٥) كتاب المخطوطات الكاملة للآباء والصادر في باريس من عام ١٨٤٤-١٨٥٥

([1])Roger of Wendover's Flowers of History, Vol. 11, London, 1849, PP. 169, 497.

"الأجزاء اللاتينية ، حققه ماين . ج. ب Migne, J. P." [1]:

أضاف ما كتبه Migne في كتابه المخطوطات الكاملة للآباء معلومات قيمة حيث عرض عددا كبيرا من الامتيازات الممنوحة من الملوك للتجار خاصة فيما يتعلق بحركة النقل وحريات الترحال بين الموانئ المختلفة الأمر الذي مكن التجار من سهولة العبور إلى الأسواق، والانتقال من مدينة إلى أخرى، من سوق إلى سوق بدون إعاقة كبيرة.

كما أمد البحث بوثائق مهمة للغاية عن إتجار الأوربيين مع الشرق، خاصة تجارة البنادقة في الشرق، إذ عرض للوثيقة البابوية الخاصة بالاحتجاج ضد عمل البنادقة مع التجار المسلمين، والتي ظهر من خلالها تشديد البابوية على عدم تعاملهم مع المسلمين وإلا تعرضوا لمصادرة الممتلكات بل والوقوع أسرى كذلك. إضافة إلى الوثيقة الخاصة بالسماح للبنادقة بالمتاجرة مع المسلمين في غير السلع الحربية نتيجة للضرر الذي تعرضوا له من جراء الحظر البابوي للإتجار مع المسلمين خاصة أنها تعتمد في حياتها على التجارة وهو ما أضاف للبحث الكثير من المعلومات والحقائق عند الحديث عن الحروب الصليبية وانتعاش التجارة العالمية.

كما تضمن كتاب ماين Migne عددا آخر من الوثائق المهمة التي أفادت البحث بصورة كبيرة منها البراءة الخاصة بإقامة سوق القديس دنيس St. Denis، والتي احتوت على معلومات في غاية الأهمية عن الأسباب وراء تشييد هذا السوق، ومكان إقامته، والنجاح الذي شهده من جراء هذا الموقع، والامتيازات التي منحت للتجار القادمين إليه من داخل فرنسا وخارجها، والعقوبات التي كانت توقع على من يعكر صفو السوق وهو ما أمد البحث عند الحديث عن الأسواق المحلية بمعلومات غزيرة.

منها أيضا الوثيقة الخاصة بالاحتجاج البابوي ضد الحماية الملكية للمرابين اليهود، وضد ممارساتهم الربوية كمرابين، والتي أوضحت أن اليهود وصلوا بسبب تلك الحماية،وعدم الشهادة ضدهم إلى درجة كبيرة من الغطرسة والتبجح جعلتهم يبنون معابد جديدة بجوار الكنائس دون أن تكون أقل ارتفاعا منها مما سبب إزعاجا كبيرا

([1])Patrologiae Cursus Completus Series Latina, Vol. LXXX, CCXV, Paris 1844 , 1855, PP. 510, 493, 501 – 503 , by Migne (J.P.).

للمسيحيين وهو ما أضاف للبحث مادة مهمة عن دور اليهود في العمل كمرابين.

(٦) لابينبرج . ج. م Lappenberg. J. M ومؤلفه تحت عنوان "وثائق متنوعة خاصة بتجار حديد الهانزا في لندن" والصادر في هامبورج ١٨٥١م[١] :

كما استفاد البحث من كتاب لابينبرج Lappenberg عن عصبة الهانزا حيث قدم عددا من الوثائق والتي تضمنت العديد من الامتيازات التي منحها الملوك للتجار والحماية التي أغدقوها عليهم، والتي من أمثلتها حماية الملك هنري الثاني (٥٤٩-٥٨٥هـ/ ١١٥٤-١١٨٩م) لتجار كولونيا، والتي أكد من خلال هذه الوثيقة على وضع تجار كولونيا تحت حمايته الخاصة وحماية ممتلكاتهم في لندن كذلك، وعدم أخذ أي رسوم أو ضرائب إضافية منهم.

ومنها أيضا الوثيقة الخاصة بحماية الملك حنا John (٥٩٦-٦١٣هـ/١١٩٩-١٢١٦م) للسفن والبضائع الخاصة بالتجار الألمان.

(٧) جنجلر. هـ .Gengler. H وكتابه "مجموعة قوانين البلديات الألمانية" والصادر في ايرلنجن سنة ١٨٦٧[٢] :

استفاد البحث من جنجلر Gengler في مؤلفه عن مجموعات قوانين البلديات الألمانية والذي أورد فيه العديد من البراءات الممنوحة من الملوك والأباطرة للمدن بشأن إقامة العديد من الأسواق خاصة أنها تضمنت العديد من النظم والقوانين المتعلقة بالأسواق والمرتبطة بها، من هذه البراءات، براءة الإمبراطور كونراد الثاني (٤١٥-٤٣١هـ/١٠٢٤-١٠٣٩م) لمنطقة Donauworth ، والتي تضمنت منحهم الحق في إقامة سوق أسبوعي ومعرض مع إعطائهم الحقوق المالية والضرائبية مع إسباغه الحماية على جميع التجار الموجودين بها وأن من يحدث أي اضطراب ستفرض عليه غرامة نقدية، مما أفاد البحث عند الحديث عن الأسواق المحلية، ومنها براءة الملك

([1])Lappenberg (J.M.), Urkundliche Geschichte des Hansischen Stahlhofes zu London, Part 11, Hamburg, 1851, PP. 3, 4, 5, 9.

([2])Gengler (H.), Codex Juris Municipalis Germaniae, F. Enke, Erlangen, 1867, PP. 179, 806.

أوتو Otto(٣٢٥-٣٦٣هـ/٩٣٦-٩٧٣م) الخاصة بمنح سوق للدير المقام في لورش Lorsch.

(٨) بلانكارد لويس .Blancard L وكتابه الوثائق الغير منشورة والخاصة بتجارة مرسيليا في العصور الوسطى ، والصادر في مرسيليا سنة ١٨٨٤م[1] :

أضاف بلانكارد Blancard عددا من الوثائق المهمة الغير منشورة في مؤلفه عن الوثائق الخاصة بتجارة مرسيليا في العصور الوسطى والمتعلقة برسوم الشحن والشراكة في التجارة الخارجية، والشراء على الحساب وهو ما أفاد البحث عند الحديث عن انتعاش التجارة والمعاملات المالية والتجارية التي تمت داخل الأسواق.

كما حوت هذه الوثائق أيضا وثائق خاصة بالشراء على الحساب، والعمل كصبي عند مغير أموال (صراف) بما تضمنته من معلومات مهمة عن التدريب في هذه المهنة والترقي فيها والشروط اللازمة لقبول تعلم الصبي. ومنها وثائق خاصة بالشراكة في تغيير الأموال وهو ما تطلب رأس مال كبير لهذا العمل، والتي تضمنت الشروط اللازمة لمثل هذا العمل مما أضاف للبحث الكثير من المعلومات عند الحديث عن المصارف والعمل المصرفي وتبديل الأموال وغيرها من الأمور المالية الخاصة بالإقراض والتسليف.

كما تضمنت عددا من الوثائق المهمة المتعلقة بالفواتير الخاصة بالشراء والبيع، مثل فاتورة شحن وفاتورة بيع الأمر الذي أفاد البحث عند الحديث عن طرق الدفع والوفاء.

كما تضمنت عددا من الوثائق المتعلقة بمعاملات الإقراض، والتي اتضح من خلالها قيام المقرضين بحماية أنفسهم عند الإقراض بأخذ الفوائد، والتي حتى وإن لم تذكر صراحة في العقد فإنها قد دخلت في مبلغ القرض نفسه أو في بند خاص بدفع الخسارة أو التلف أو غرامة على عدم سداد القرض في ميعاده، مما أضاف للبحث الكثير من المعلومات عن القروض وتطورها.

كما حوت الوثائق عددا من إيصالات الإيداع، والتي استخدمت لتجنب حمل الأموال لما

([1])Blancard (L.), Documents Inédits sur le commerce de Marseille au Moyen Age, Vol.1, 11, Marseilles, 1884, PP. 3, 29, I01, 194, 350, 361, 109, 116, 123, 155, 223, 232.

فيه من خطورة السفر به، وبذا صارت الإيصالات وسيلة أداة للتعامل، واستخدمت لشراء البضائع من مدينة إلى أخرى، وهو ما أفاد عند الحديث عن الصكوك والدفاتر.

كما تضمنت عددا من الوثائق الخاصة بوضع قيمة للملكية العقارية، حيث تم وضع إيجار سنوي يتفق عليه في عقد الإيجار، كما قام ملاك العقارات بحماية أنفسهم ببنود خاصة، وهو ما أمد البحث بمعلومات قيمة ووثائقية عند الحديث عن مراكز إقامة التجار داخل الأسواق.

كما حوت عددا من الوثائق المتعلقة بأوامر البيع والشراء بين التجار الشركاء بعضهم البعض من مدينة إلى أخرى وفقا لمقتضيات الأموال والأحوال التجارية وبما يحقق الربح لجميع الأطراف على السواء وهو ما أفاد كثيرا عند الحديث عن المعاملات المالية والتجارية بالسوق.

(٩) جروس شارل . Gross. C وكتابه عن نقابة التجار والصادر في أكسفورد سنة ١٨٩٠م[1] :

كما أن جروس Gross قدم مادة وثائقية متميزة في مؤلفه عن نقابات التجار فيما يتعلق بالاتحادات أو النقابات وتطورها بدء من اتحاد رجال المدينة الواحدة في اتحاد الـHanse مثلما حدث في مدينة دورترشت Dortrecht لخدمة مصالحهم التجارية، إلى أن تطور الاتحاد ليضم التجار من المدن الصغرى مع تجار المدن الكبرى مثلما حدث في أوترخت Urecht، أو اتحاد التجار من مدن عدة مثلما حدث في الراين Rhine من أجل الدفاع المشترك والتجارة المتطورة معا وبهذا يكون الاتحاد قد وصل إلى قمة تطوره، مما أضاف للبحث الكثير من المعلومات عن تطور النقابات.

كما تضمن كتاب جروس عددا من البراءات المهمة الممنوحة من قبل الملوك لاتحادات المدن والتي تضمنت عددا ضخما من الامتيازات منها براءة هنري لميناء Rouen التي تضمنت بعض الإعفاءات الجمركية وحرية الإبحار من بعض الموانئ

([1])Gross (C.), The Gild Merchant, Vol. 1, 11, Oxford, 1890, PP. 292 – 293; 59, 119 – 122, 293.

المهمة إلى جانب منح الامتيازات داخل لندن كذلك مما أضاف للبحث معلومات مهمة عن الامتيازات الممنوحة للاتحادات.

كما اشتمل على عدد من الحقوق والامتيازات الممنوحة للاتحادات أو النقابات، مثل حقوق الاتحاد في دبلن Dublin ، والتي تعطي صورة عامة عن الامتيازات النمطية لاتحاد التجار بالنسبة للعلاقات بين التجار الأجانب والمحليين إلى جانب نظم تسيير تجارة التجزئة والجملة داخل المدن. ومنها أيضا إقامة حكومة الاتحاد في إبويش Ipwich والتي اتضح من خلالها مدى الارتباط الوثيق بين الاتحاد والمدينة.

(١٠) وليم ستابس Stubbs, W. ومؤلفه عن "مختارات من مواثيق تاريخ التشريع الإنجليزي" والتي قام بنشرها الأستاذ دافيز Davis والصادر في اكسفورد سنة ١٩١٣م[1]:

وأما Stubbs فقد قدم مجموعة مختارة من البراءات في تاريخ التشريع الإنجليزي، منها مجموعة ضخمة من البراءات الملكية الممنوحة من قبل الملوك للتجار ونقاباتهم وقد تضمنت عددا من الامتيازات المهمة، منها براءة الملك حنا John لمدينة دنويش Dunwich.

كما أورد عددا من البراءات الممنوحة من قبل رؤساء الأساقفة إلى المدن واتحاداتها بناء على السلطة الممنوحة لهم من قبل الملوك، من ذلك براءة رئيس الأساقفة إلى بيفرلي Beverley والتي احتوت على عدد ضخم من الامتيازات المهمة مما أفاد البحث بصورة كبيرة.

كما قدم عددا من الوثائق فيما يتعلق بأسلوب عمل القروض في انجلترا، ومدى ما تمتع به هؤلاء المقرضين من حماية الملك، خاصة فيما يتعلق باليهود والشروط التي وضعها الملك هنري الثاني لعملهم في انجلترا مما أضاف للبحث الكثير من المعلومات

([1])Stubbs (W.), Select Charters of English Constitutional History ed. Davis, H.W.C. Oxford, 1913, PP. 76 – 77, 131 – 132, 219, 212, 224 and 308.

عند الحديث عن القروض.

كما أورد تعريفا بما يمكن أن نسميه بيت المال أو وزارة الخزانة داخل انجلترا في العصور الوسطى، والتى استطعنا من خلال المعلومات الواردة عنها أن نستنبط منها مهام عمل الصيارفة داخل الأسواق وطرق عرضهم للأموال ومبادلتهم إياها الأمر الذي أمد البحث بمادة وثائقية مهمة عن المصارف ودورها آنذاك.

إلى جانب حديثه عن قوانين مدينة لندن London التي أفادت التجار والتجارة بصورة مباشرة مما أفاد البحث في العديد من عناصره.

(١١) حوليات جوسلين من بروكلوندا (Chronica Jocelini de Brakeonda, Rokewode - J. K) والتي قام بتحريرها وإصدارها روكوود . ج.ج في لندن سنة ١٨٤٨م[1] :

احتوى هذا الكتاب على عدد مهم من الوثائق المتعلقة بالإقراض، والتي منها قرض لأحد الأديرة ، وبالرغم من أن هذا القرض لا يتعلق بتجار السوق إلا أنه أكد ودلل بصورة قاطعة على أهمية الإقراض وانتشاره آنذاك حتى أن رجال الدين أنفسهم انتهكوا القوانين الخاصة بتحريمه، بل إنهم رهنوا الأواني المقدسة والأردية الكهنوتية، وعندما عجزوا عن السداد تعاظمت نسبة الفائدة سنويا، حتى وصلت إلى أعلى مما يمكن أن يتحمله الدير، وهو ما دفع اليهودي صاحب القرض للجوء إلى الملك، الأمر الذي أظهر سطوة اليهود والمكانة التي حازوها آنذاك حتى أن الملوك تدخلوا لحمايتهم ورد حقوقهم.

كما احتوى على وثائق مهمة فيما يتعلق بالضرائب، والجدل الدائر حول انتزاعها، ومدى ما كان يعانيه الناس بسبب التغيرات الدائمة في أساليب الدفع، والعنف المتبع في جمعها، الأمر الذي دفع الجميع إلى التباحث من أجل حل هذه المشكلة حتى توصلوا إلى دفع ضريبة سنوية بدلا من العنف في انتزاع الضرائب من جانب الوكلاء. وهو ما أفاد البحث عند الحديث عن الضرائب.

([1])Chronica Jocelini de Brakelonda, J.G. Rokewode, Ed., London, 1848, P. 2, 73 – 74.

(١٢) كمبل ، ج. م .Kemble, J. M وكتابه السكسون في انجلترا والمنشور في لندن سنة ١٨٧٦م[1] :

احتوى كتاب كمبل Kemble (The Saxon in England) عن السكون في انجلترا عددا من الوثائق المهمة التي أفادت البحث، والتي تضمنت عددا من البراءات الممنوحة للاتحادات وتجارها، والتي احتوت على عدد مهم من الامتيازات التجارية والإعفاءات من بعض الرسوم والضرائب. من هذه المنح البراءة الممنوحة للقديس أومير St. Omer من وليام William كونت الفلاندرز Flanders بناء على التماس قدمه إليه تجار اتحاد مدينة القديس أومير التي شهدت تطورا كبيرا حتى أصبحت إحدى مدن الفلاندرز التجارية المهمة، وقد تضمنت عددا من الامتيازات الجيدة، كالإعفاء من الرسوم، ودفع إيجار سنوي، والإعفاء من الجمارك كذلك الأمر الذي أضاف للبحث الكثير من المعلومات المهمة عند الحديث عن مدن الفلاندرز وموقعها.

ومنها أيضا البراءة الممنوحة من ثيودور Theodore ، كونت الفلاندرز Flanders لمواطني القديس أومير بشأن الحصول على أرض كمقر لاتحادهم في مكان السوق وهو ما أفاد البحث عند الحديث عن مراكز إقامة التجار داخل السوق.

ومنها أيضا البراءة الممنوحة لمدينة بروج Bruges ، من الكونت فيليب Philip والتي تضمنت عددا من الامتيازات التجارية المهمة جدا مما أفاد البحث في أكثر من موضع.

(١٣) مينادبير . ج Menadier , J وكتابه عن "العملة في آخن" والصادر في برلين سنة ١٩١٣م وحرره برومبتر، و٠ [2] :

احتوى كتاب مينادبير Menadier عددا من الوثائق المهمة المتعلقة بتشييد الأسواق وإعطاء الموافقة على إقامتها وقد تضمنت تلك الوثائق معلومات مهمة للغاية عن النظم المتبعة داخل الأسواق. منها البراءة الخاصة بالإمبراطور فردريك بربروسا Fredrick Barbarossa (٥٤٧-٥٨٦هـ/١١٥٢-١١٩٠م) إلى آكس

([1])Kemble, J.M., The Saxons in England, Vol. 11, London, 1876, P. 528, 533.

([2])Menadier, J, Die Aachener Munzen, Berlin: W. Pormetter, 1913.

لاشابيل Aix – la – Chapelle بشأن إقامة معرضين في مدينة آخن Aachen ، وقد تضمنت تلك البراءة معلومات قيمة عن السبب في إقامتها في ذلك المكان وعن التشريعات التي منحها الإمبراطور لهذه الأسواق وعن النظم المالية داخلها، وعن العقوبات والغرامات التي تفرض عند مخالفة الأوامر الإمبراطورية مما أفاد البحث في كثير من عناصره.

(١٤) Cartalaire de L'Abbaye de Saint-Trond مراسيم كاتدرائية القديس تراند والتى قامت بنشرها الأكاديمية الملكية في بروكسيل سنة ١٨٧٠[1] :

أضاف هذا المصدر معلومات قيمة للبحث فيما يتعلق بالضرائب وما لحق بها من تغيرات، إذ أصبح من الممكن أن تصير الضرائب ملكية خاصة، بل ومن الممكن أيضا أن تصبح موضوعا للبيع والشراء والرهن. من ذلك البراءة الخاصة برهن ضريبة البيرة، والصادرة من أحد رؤساء دير سانت تراند Saint – Trond رغبة منه في إنهاء الخلافات والسعي الدائم للحصول عليها منذ زمن رئيس الدير السابق. فجعلها لصالح أحد رجال المدينة ولزوجته وورثتهما من بعدهما بسبب إخلاصهم وعدلهم، وهو الأمر المعروف للجميع. وكان هذا الرهن مقابل مائة مارك ووقعت في حضور أعضاء الكنيسة. الأمر الذي يؤكد على أهمية مثل هذه البراءات.

(١٥) Anglo – Saxon Chronicle تاريخ الأنجلو ساكسون والذي قام بترجمته حنا انجريم وتم إصداره في لندن سنة ١٩١٧م[2] :

تضمن هذا المصدر عددا من الوثائق التي تتعلق بالبراءات التي منحت من قبل الملوك لبعض الوجهاء ورؤساء الأساقفة والتي تضمنت عددا من الامتيازات والمنح المهمة. من ذلك البراءة الممنوحة من الملك إدجار Edgar (٣٣٢/٣٣٣-٣٦٥هـ/ ٩٤٣/٩٤٤-٩٧٥م) لأحد رؤساء الأديرة والتي تخول له السلطة المطلقة على المدينة

---

(1)Cartulaire de L'Abbaye de Saint-Trond, C.Piot, Ed. (Académie Royale de Belgique, Brussels, 1870) A.D. 1139, P. 39.

(2)Anglo – Saxon Chronicle, Translated by the Rev. James Ingram (J.M. Dent and Sons, London, 1917), A. D. 963, P. 93.

التي يقع بها الدير وبعض الأراضي التي تحيط بها وتقع حولها، دون أن يكون للملك أو لأي أسقف أو شريف أي سلطة قضائية أو غيرها على المدنية ما عدا سلطة رئيس الدير فقط أو من يعينهم هناك من قبله. كما منحته تلك البراءة الحق في إقامة سوق في المدينة نفسها وحق تحصيل الضريبة كذلك. مما أفاد البحث كثيرا عند الحديث عن انهيار النظام الإقطاعي ونشأة المدن، وأيضا عند الحديث عن تشييد الأسواق إذ أعطت هذه البراءة صورا للامتيازات الممنوحة للمدن.

(١٦) Rolls Series مجموعات مراسيم الأديرة والتي صدرت في لندن سنة ١٨٨٦م[١]:

أضاف هذا المصدر معلومات مهمة للبحث عن البراءات الملكية الخاصة بإقامة الأسواق، والتي منحت للوجهاء ولرجال الدين ولذوي النفوذ وقد تضمنت مثل هذه البراءات عددا من الامتيازات المختلفة. من ذلك البراءة الخاصة بالملك هنري الأول Henry I لدير القديس بندكت St. Benedict والتي منحتهم حق إقامة معرض إلى جانب منحهم حق إقامة محكمة وتمتعهم بالجمارك داخله كما يحدث في أي معرض في انجلترا، وتمتعهم بسلام الملك. وقد أكدت هذه البراءة ومثيلاتها على رغبة الملوك في ضمان تجارة آمنة عبر أراضيهم. وهو ما أضاف للبحث الكثير عند الحديث عن تشييد الأسواق والامتيازات الممنوحة للتجار داخلها.

(١٧) The Heimskringla وهي عن تاريخ ملوك النرويج والتي تمت ترجمتها من اللغة النرويجية من قبل صمويل لينج وصدرت في نيويورك سنة ١٩١١م[٢] :

تضمن هذا المصدر عددا من الوثائق التي اعتمد عليها البحث في كثير من عناصره كالبراءات الخاصة بإقامة الأسواق والمعارض والسلع المباعة بهما. ومن تلك الوثائق المتعلقة بالأسواق والمعارض الاسكندنافية، مثل سوق أوبسالا Upsala الذي بلغ شأنا

---

(1)Rolls Series, Captularium Monasterii de Rameseia, Vol. 11, London, 1886, A.D. 1110, P. 101.

(2)The Heimskringla, A History of the kings of Norway, translated from the Norwegian of Snorri Sturlason by Samuel Laing, Esq. the Hon. Rasmus B. Anderson, Ed. Vol. 1, New York, 1911, PP. 201, 342.

مهما جعله يضاهي أن يكون معرضا بحق برغم أنه امتد لفترة قصيرة من الوقت. كما أعطى معلومات مهمة عن خلق مدينة السوق وهو ما لم يكن أمرا معتادا، إلا أن الفائدة العظيمة للسوق جعلت الملوك يقيمون الإثنين معا، والمقصود من خلق مدينة السوق أن يقام السوق أولا ثم يأتي الناس إليه ويقيموا حوله حتى ينشئوا بذلك مدينة حول السوق. كما أضاف معلومات عن أنواع المتاجر التي وجدت داخل مثل هذه المعارض، مثل قيامه بعرض بضائع إحدى المعارض الشمالية والتي تمثلت في الفراء والجلود التي تناسب أجواء مثل هذه المناطق. كما أوضح أن الهدن كانت تقام فترة انعقاد المعارض نظرا لأهميتها للمكان الذي تعقد فيه ولجميع الأطراف حتى ولو كان بينهم نزاع أو قتال. وهو ما أفاد كثيرا عند الحديث عن أهمية المعارض، وعن المتاجر التي تخصصت فيها الأسواق، وعن تشييد الأسواق.

(١٨) Fagniez, Gustave جوستاف ، فانيز ومجموعة الوثائق التي تخص تاريخ الصناعة والتجارة في فرنسا والصادرة في باريس سنة ١٨٩٨م[١] :

أضاف هذا الكتاب معلومات قيمة للبحث عند الحديث عن أسواق الفلاندرز Flanders وازدهار الحركة التجارية بها. إذ ظهر من خلال هذا الكتاب المكانة التجارية العظيمة التي حازها تجار الفلاندرز Flanders (الفلمنكيين) والتي جعلتهم يحصلون على امتيازات تجارية مهمة في كولونيا Cologne. إذ اتفق تجار كولونيا وتجار الفلاندرز على الأسس التي يجب أن يعامل على أساسها التجار الفلمنكيين داخل كولونيا دون حدوث أي اعتداء على أي منهم في شخصه أو ماله أو تأخيره أو تقديمه للمحاكمة إلا بإثبات إدانته بقانون كولونيا أو قيامه بقتل أو جرح لأي فرد.

(١٩) Recueil., de Docoments Relatifs a l'Histoire de L'landustrie Drapiére en Flandre مجموعة وثائق تخص تاريخ صناعة الصوف في الفلاندرز والصادرة في بروكسيل سنة ١٩٠٦م[٢] :

---

(1)Fagniez, Gustave, Documents Relatifs à L'Histoire de L'industrie et du commerce en France, Vol, 1, Paris, 1898, P. 97.

(2)Recueil de Documents Relatifs a L'Histoire de l'industrie Drapière en Flandre, Tome 1, Brussels, 1906, P. 648.

تضمن هذا الكتاب معلومات مهمة فيما يتعلق بالضرائب، وبعض الإعفاءات من عدد من الضرائب المختلفة. من ذلك منح النساجين إعفاء من إحدى الضرائب الملكية بهدف تشجيع النساجين للاستقرار والعمل بالمدينة، إذ قامت جوان Joan كونتيسة الفلاندرز Flanders ، بإعفاء الرجال الذين يذهبون إلى مدينة Courtrai من الضريبة طالما قدموا للحياة في المدينة، وطالما يبقون بها للعمل في صناعة نسج الصوف، مما أفاد البحث كثيرا عند الحديث عن الضرائب وعن الإعفاءات والامتيازات التي حصل عليها تجار الفلاندرز.

(٢٠) بنياتي من فينتيرا Pagnini della Ventura وجيوفاتي فرانسسكو Giovanni Francesco ومجموعة الوثائق الخاصة بالقومونات والصادرة في مدينة لوكا سنة ١٧٦٥م[1]:

تضمن هذا المصدر معلومات مهمة فيما يتعلق بالقروض وشيوعها في أوروبا والضمانات التي كانت تؤخذ بهدف رد القرض كاملا أو استيفاء قيمة القرض من الضمان. من ذلك عقد يتضمن وضع الأرض كضمان لقرض مالي، إذ أصبحت القروض بضمان الأرض أمرا شائعا خلال الحروب الصليبية بين طبقة من الناس والذين ذهبوا إلى الأراضي المقدسة وكذلك بين التجار. وفي حالة الفشل في رد المبلغ أو القرض يصبح الرهن ملكا للدائن. وقد تضمن هذا العقد وضع الأرض كرهن مقابل فضة منحت كقرض، علما بأنه في حالة رد هذه الفضة إلى صاحب القرض في الموعد المحدد يتم إعادة الرهن مع السند، أما إذا لم يتم ذلك فإن الرهن يكون ملكا للدائن ولورثته قانونيا. مما يؤكد على تطور القروض وانتشارها بصورة كبيرة وهو ما أفاد البحث كثيرا عند الحديث عن القروض والتعامل الربوي.

(٢١) كامباني أ. Campany, A. de, Memorias Sobr la Marina, مذكرات عن التاريخ البحري والتجاري والفني القديم لمدينة برشلونة والصادر في مدريد سنة ١٧٧٩م[2]:

---

(1)Pagnini della venture, Giovanni Francesco, Della De cimae di varie Altre Gravezze imposte dal comune di Frenze, Tome I, Lisbon, Lucca, 1765, Appendix, P. 253.

(2)Capmany, A.de, Memorias sobre la Marina, Comercio, y Artes de la Antigua Ciuded de Barcelona, Vol. 11, Madrid, 1779 – 92, P. 18.

احتوى هذا المصدر على معلومات مهمة فيما يتعلق بتحسين إمكانيات الموانئ وأهمية ذلك لتحسين التجارة وتحقيق الازدهار التجاري وتسيير عمليات التبادل التجاري. من ذلك الجهود التي بذلها الملك جيمس James (٦١٠-٦٧٥هـ/١٢١٣-١٢٧٦م) من أجل تحسين إمكانيات الشحن في برشلونة Barcelona ، ومن أجل حماية مصالح البحارة ورغبة منه في إنماء ثرواتهم وتحسين المدينة لمصلحة الجميع، لذا فقد خصصت مساحة كبيرة لصناعة وصيانة السفن ولتستقر بها السفن والقوارب الصغيرة الأخرى، دون أن يسمح لأي شخص بالإقامة بهذه المنطقة أو ببناء أي مباني هناك وفي حالة حدوث ذلك يتم تدمير هذه المباني دون انتظار، الأمر الذي أفاد البحث بصورة مباشرة عند الحديث عن انتعاش التجارة العالمية.

(٢٢) الكتاب الأحمر الخاص بالتبادل والذي نشر عام ١٨٩٦م The Red Book[1] :

أضاف هذا المصدر معلومات مهمة للبحث عند الحديث عن المصارف وعمل الصيارفة وتنوع العملات وذلك من خلال عرضه للقيمة النسبية للعملات الفضية المتداولة والتي حصل عليها من الدول الأجنبية المختلفة. إذ من الممكن فهم بعض وسائل صرافي المال من خلال دراسة القيم النسبية للعملات التي يتداولونها.

(٢٣) جاريت بيد . و . ب Jarrett, Bede, O. P. وكتابها النظريات الاجتماعية للعصور الوسطى والذي ترجمه ونشره فيما بعد في لندن أرنست في سنة ١٩٢٦م[2] :

احتوى هذا الكتاب على معلومات مهمة عن الأسواق والمعارض، فقد أظهر أوجه الاختلاف فيما بين لفظة Markets ، ولفظة Fairs وأهمية كل منهما للمنطقة المقام

([1])The Red Book of the Exchequer, Hubert Hall, Ed., (H.M. Stat. off. 1896), P. 979.

([2])Jarrett, Bede, O.P., Social Theories of the Middle Ages, Translated by Father Jarrett of Serm. Xcii, in Merchatis, P. 562.
other by Humbert de Romans (Ernest Benn, London, 1926), A.D. 1194 – 1277, P. 164.

فيها. كما أوضح بعض المساوئ الموجودة بداخل الأسواق من انعقادها في أيام الأعياد مما يفوت على الناس الطقوس الروحية والاستماع للمواعظ، إضافة إلى عدم الاستماع إلى القداس لحضور الأسواق مخالفين بذلك أوامر الكنيسة. كما تحدث عن أماكن إقامتها وكيف أن بعضها كان يقام في أراضي المقابر والأماكن المقدسة الأخرى. إضافة إلى تناوله بعض التجاوزات التي تحصل داخل الأسواق من استخدام الأيمان الكاذبة والتحايل على الناس والكذب وكلها أمور مخالفة للدين المسيحي. مما أفاد البحث عند الحديث عن الأسواق المحلية وإيضاح أوجه الشبه والاختلاف بين الأسواق والمعارض.

(٢٤) **مجموعة المراسيم الملكية والتي صدرت في حولية الآثار الجرمانية في هانوفر سنة ١٨٧٩ Monementa, Germaniae Historica, Diplomata, Regum I**[1] **:**

تضمن هذا المصدر عددا من الوثائق المهمة كالبراءات الممنوحة من الملوك للوجهاء بشأن إقامة الأسواق والمعارض والتي تضمنت عددا من الامتيازات المهمة، من ذلك منح رئيس أساقفة هامبورج سوقا في بريمن Bremen ومنحه صلاحية سك العملة وصار التجار الذين يذهبون إلى هناك تحت الرعاية الخاصة للملك رغم سلطة رئيس الأساقفة على السوق.

وقد كانت هذه البراءة من الإمبراطور أوتو الأول Otto لرئيس أساقفة هامبورج Hamburg الذي أوضح أن الموافقة على طلبات رجال الدين والأماكن الممنوحة للعبادة سيؤدي إلى الفوز بالجائزة الأبدية، لذا فقد وافق على الالتماس المقدم إليه من رئيس الأساقفة بشأن إقامة السوق مع منحه الضريبة والعملة وكل الحقوق الأخرى المملوكة للإمبراطور. مما أضاف للبحث الكثير من المعلومات عند الحديث عن الأسواق المحلية.

(٢٥) مجموعة الوثائق الصادرة في دورية الآثار الجرمانية التاريخية والتي تخص المراسيم الملكية للفرنجة والتي نشرها الفريد بوريتيوس في هانوفر سنة

---

(1)M.G.H., Diplomata, Regum1, Th. Sickel, Ed., Hanover, 1879 – 1884, PP. 422 – 423.

: [1]M.G.H, Legum, Sectio II م١٨٩٧

احتوى هذا المصدر على معلومات قيمة عن النقابات وتطورها، فقد أعطى صورة للاتحادات المبكرة. إذ هناك الكثير من النظريات حول أصل اتحادات التجار، فاتحادات لندن التي ربما كانت تنظيمات مفروضة من السلطة الملكية، ومع ذلك فإنه من الممكن أن تكون هذه القوانين قد أكدت تنظيمات اتحادية موجودة بالفعل.

ثانيا : أهم المراجع الأجنبية :

(١) كييف ، ر. س Cave, R. C. وكولسون ، هـ هـ Coulson, H. H.: وكتابهما مصادر التاريخ الاقتصادي للعصور الوسطى المنشور في نيويورك سنة ١٩٦٥[٢] :

قام كل من الأستاذ كييف Cave وكولسون Coulson بجهد كبير في تجميع مجموعة ضخمة من الوثائق وقاما بتجميعها وترتيبها ونشرها، وجميعها تتعلق بالتاريخ الاقتصادي للعصور الوسطى.

وقد أمدت البحث بمجموعة وثائقية مهمة للغاية فيما يتعلق بالأسواق والمعارض مع تقديم دراسة لهذه الوثائق وبيان وجه الشبه والاختلاف فيما بينها، بل إنها أمدتنا بمجموعة من المنح والبراءات الوثائقية المتعلقة بنشأة الأسواق والمعارض في العصور الوسطى.

كما حوت هذه الوثائق أيضا التأمينات الممنوحة للتجار سواء داخل المدن أو في الأسواق ذاتها.

كما أمد البحث بمجموعة وثائقية عن قوانين الحريات الممنوحة للمدن، وما شهدته تلك المدن من تطور حتى حصلت على حرياتها واستقلالها الذاتي السياسي والاقتصادي.

كما تضمنت مجموعة وثائق متعلقة بالحركة التجارية أثناء الحروب الصليبية، وما أضافته تلك الحروب من نشاط التجارة العالمية.

([1])M.G.H., Legum, Sectio 11, Tome 11, Alfredus Boretius and Victor Krause, Eds. (Hanover, 1897), P. 375.

([2])Cave (R. C.), Coulson (H.H.), A Source Book For Medieval Economic History, New York, 1965.

كما أنها حوت مجموعة وثائقية فيما يتعلق بنشأة الاتحادات أو النقابات وتطورها وما تمتعت به من امتيازات من قبل الملوك إلى أن صارت صاحبة السلطة والسيادة داخل المدن.

(٢)لوبيز . ر ،Lopez, (R.) وريموند ، آي Raymond (I) , وكتاب "تجارة عالم البحر المتوسط في العصور الوسطى" والمنشور في نيويورك سنة ١٩٥٥[1] :

قدم لنا كل من الأستاذ روبرت لوبيز Lopez ، وايرفنج ريموند Raymond في كتاب "تجارة عالم البحر المتوسط في العصور الوسطى" مجموعة وثائق غاية في الأهمية عن دور اليهود في التجارة العالمية، وعن الأسواق والباعة الجائلين، والمباني الخاصة بإقامة التجار الأجانب داخل تلك الأسواق والمعارض. كما أمد البحث بمجموعة وثائق مهمة عن معارض شامبني Champagne الستة التي عقدت في أربع مدن هي تروي Troyes، بروفانس Provins، ولاجني Lagny، وبار – سير – أوب Bar-Sur-Aube، حيث أورد مجموعة من المراسلات التجارية والخطابات التي تبادلها التجار فيما بينهم من داخل تلك الأسواق إلى شركائهم خارجها.

كما قدما مجموعة وثائق عن المدن التجارية المهمة ونموها لتصبح سوقا دائمة مثل ميلان Milan، وبافيا Pavia، والبندقية Venice، وجنوة Genoa، وغيرها من المدن المهمة.

كما أورد وثائق تتعلق بممتلكات التجار وحساباتهم التي بينت لنا الوضع المتنامي للتجار. كما كان للوصايا التي تركها التجار خلفهم أثر كبير في معرفة كيفية ثراء التجار، وأنواع المتاجر التي تاجروا فيها وهو ما ورد في أكثر من موضع من هذا الكتاب.

كما أفاد البحث بمجموعة وثائقية عن المعاملات المالية والتجارية التي قام بها التجار داخل الأسواق، كالقروض وأشكالها المختلفة وتطورها كذلك.

([1])Lopez (R.), Raymond (I.), Medieval Trade in Mediterranean World, New York, 1955.

(٣) أديلسون، هـ. ل. Adelson, H. L وكتابه تجارة العصور الوسطى المنشور في نيويورك سنة ١٩٦٢[1] :

يعد كتاب آديلسون Adelson ، تجارة العصور الوسطى ، (Medieval Commerce) من الكتب الاقتصادية المهمة عن تجارة تلك الفترة. إذ أمد البحث بمعلومات مهمة عن التطور التجاري داخل أوروبا والعوامل التي نقلتها من حالة الاكتفاء الذاتي إلى حالة الانتعاش وهو ما تمثل في عصر النهضة الأوروبية. كما أمدنا بمعلومات مهمة عن تطور المدن التجارية خاصة الإيطالية منها وما قامت به من توسع تجاري فيما وراء الألب وصولا إلى معارض شامبني Champagne، الفلاندرز Flanders، مما جعلها تلعب دورا مهما في إرساء التجارة شمالا. كما أضفى معلومات فيما يتعلق بالحروب الصليبية وأثرها الواضح في انتعاش التجارة العالمية بصفة عامة والتجارة الأوروبية بصفة خاصة، وإبراز دور المدن الإيطالية الواضح في المشاركة في تلك الحروب من أجل ثرائها ومنفعتها الخاصة.

كما تضمن كتاب آديلسون Adelson مجموعة وثائقية أفادت البحث بصورة كبيرة، كالوثائق الخاصة بقيام الإمبراطور فردريك بربروسا Frederick Barbarossa بالسماح بإنشاء معرضين في آخن Aachen. وتلك الخاصة بالرحالة بنيامين التطيلي Banjamin Tudela ، الذي زار العديد من المدن في الشرق والغرب وقام بتدوين جميع أسفاره وما شاهده من تطور التجارة وحشود التجار داخل المدن والأسواق المهمة كزيارته للاسكندرية والقسطنطينية وحديثه عن أهمية تلك المدن تجاريا وما شاهده فيها كذلك.

ثالثا : كتب الرحلات :

(١) كتب الرحالة المسلمون :

([1])Adelson (H.L), Medieval, Commerce, New York, 1962.

رأينا الاستعانة في بحثنا بعدد من الرحالة، كان أبرزهم ابن جبير[1] ، الذي أمد البحث بمعلومات مهمة عند الحديث عن الحروب الصليبية وأثرها في قيام الأسواق الأوروبية خاصة أنه أورد وصفا لحال التجار المسلمين والصليبيين في تعاملهم التجاري مع بعضهم البعض برغم ما كان بينهم من حروب، كما أفاد البحث بوصفه للساحل الشامي وبعض البلدان الشرقية المهمة ذات الثروات التجارية العظيمة. إلى جانب الاستفادة منه عند الحديث عن حركة إقلاع السفن من الشرق إلى الغرب ومواعيدها كذلك.

(٢) كتب الرحالة الأجانب :

ماركو بولو[2] : الذي أضاف للبحث معلومات مهمة عن الشرق الأقصى ومدنه ومدى غناها بالثروات وأنواعها، وهو ما أفاد البحث بمعلومات كثيرة عن أنواع المتاجر التي وصلت إلى أسواق أوروبا من الشرق خاصة الشرق الأقصى.

رابعا : المصادر العربية :

من أهم المصادر العربية التي أفادت البحث كتاب الدمشقي[3] "الإشارة إلى محاسن التجارة" حيث تم الاستفادة منه في تعريف كل ما غمض من أنواع المتاجر وإعطاء شرح واف له، وهي نفس الإفادة التي استفادها البحث من كتاب الشيزري[4] "نهاية الرتبة في طلب الحسبة"، وغيرها كذلك.

خامسا : المراجع العربية :

من أهم المراجع العربية التي أفادت البحث تلك الكتب المتعلقة بتاريخ أوروبا الحضاري والتي أبرزها على الإطلاق كتاب الدكتور/ سعيد عاشور[5] "أوربا العصور الوسطى"

---

(1) ابن جبير "محمد بن أحمد" ت/٦١٤هـ، رحلة ابن جبير (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار)، طبع بمدينة ليدن، ١٩٠٧م، ص٢٨٧، ٢٨٨، ٣٠٣.

(2) ماركو بولو، رحلاته، ترجمة/ عبدالعزيز جاويد، ج١، ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥-١٩٩٦م.

(3) الدمشقي "أبو الفضل جعفر بن علي" ت/ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، الإشارة إلى محاسن التجارة، تحقيق/ البشري الشوربجي، القاهرة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

(4) الشيزري "عبدالرحمن بن نصر" ت/٥٨٩هـ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق/ السيد الباز العريني، القاهرة، ١٩٤٦م.

(5) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، جزءان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م.

(النظم والحضارة) الذي أفاد البحث بمعلومات مهمة عن الإقطاع وانهياره، ونشأة المدن، والقومونات، وتطور الحياة التجارية، وظهور الطبقة البرجوازية وأثرها على التجارة، والأسواق نشأتها وتطورها وأهميتها كذلك، والنقابات ودورها في حماية التجار والعصبة الهانزية. وهو ما أضاف لجميع عناصر البحث معلومات ذات ركائز أساسية.

وهناك أيضا كتاب دكتور/ السيد الباز العريني[1] "الحضارة والنظم الأوروبية" الذي أمد البحث بمعلومات عن الإقطاع وانهياره، والمدن وتطورها، والإحياء التجاري وأثره على أوروبا. وغيرهما من الأساتذة الذين تناولوا ذلك في كتاباتهم عن أوروبا أمثال دكتور/جوزيف نسيم في كتابه "تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها"، دكتور/ محمود سعيد عمران "حضارة أوروبا في العصور الوسطى"، دكتور نعيم فرج "الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى" وكلها كتب مهمة للغاية أضافت للبحث الكثير، إلا أنها كتابات عامة عن تاريخ أوروبا الحضاري بكل جوانبه، إلا أن موضوع البحث اقتصر على إبراز دور الأسواق الدولية الكبرى في أوروبا العصور الوسطى بصورة أساسية.

ومن أهم الكتب التي أفادت البحث كذلك كتاب الأستاذ/هنري بيرين[2]، الذي يعد واحدا من أشهر وأهم المؤرخين الذين كتبوا في التاريخ الوسيط، ويعد كتابه "تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الحياة الاقتصادية والاجتماعية" من أبرز الكتب التي كتبت في هذا المجال، وقد أفاد البحث في إعطاء مادة عن أوروبا في ظل النظام الإقطاعي، والتحول الاقتصادي الذي شهدته أوروبا، والأسواق المحلية التي كان أبرزها سوق القديس دنيس، وإعطاء إيضاح لدور اليهود في تجارة أوروبا. مع إبرازه لدور الحروب الصليبية في إنماء المدن الإيطالية. وأيضا تناوله للأسواق العالمية والتي كان أبرزها أسواق شامبني والفلاندرز، مع إيضاحه للعديد من المعاملات التجارية التي كانت تتم داخل الأسواق مما أضاف للبحث مادة مهمة للغاية.

---

(1) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م.

(2) هـ. بيرين ، تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (الحياة الاقتصادية والاجتماعية)، ترجمة/ عطية القوصى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٦م.

التمهيد

ويشتمل على :

الأسواق المحلية والعوامل التي أدت إلى ضعفها

شهدت أوروبا العصور الوسطى تغيرات اقتصادية واجتماعية كبيرة أدت إلى إبراز عدد كبير من المتغيرات كان على رأسها ظهور الأسواق المحلية.

كانت الأسواق المحلية نتاجا طبيعيا لأحوال المجتمع الأوروبي الوسيط آنذاك، وإذا أردنا أن نقف على حقيقتها، وإبراز معالمها ومعرفة الداعي إلى وجودها فلابد أن نتعرف بداية على أحوال ذلك المجتمع، حتى ندرك مقدار ما لحق به من متغيرات أدت إلى ظهور تلك الأسواق والاكتفاء بها دون بذل أدنى مجهود لتطويرها والركون إلى الوضع السائد آنذاك.

وتتجلى تلك التغيرات في ظاهرة اختفاء المدن واتساع الضياع الزراعية مما مهد لظهور نظام الإقطاع[1]، الذي شاع وانتشر في أوروبا العصور الوسطى[2]. حيث دعت إليه حاجة أوروبا لافتقارها الشديد إلى الحماية والأمن. إذ من المعروف أن شارل مارتل Charle Martel[3]، رغب في التوسع في نظام الخيالة لتقوية جيشه

([1]) عن الإقطاع وتطوره انظر :

- Williamson, From Feudalism to Despotism, London, 1925.
- Coulborn, Feudalism in History, Princeton, 1950.
- Ganshof (F.L.), Feudalsim, London, 1952.
- Stephenson (C.), Medieval Feudalism, New York, 1942.
- Dutaillis,C. Petit, The Feudal Monarchy in France and England from the tenth to the thirteenth century, London, 1936.
- Marc – Bloch, Feudal society, London, 1978.

كوبلاند (ج.و)، الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوروبا، ترجمة/ محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٥م.

([2]) عفاف سيد صبره، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٣٦٥.

([3]) شارل مارتل (٩٦-١٢٤هـ/٧١٤-٧٤١م) تولى وظيفة رئاسة البلاط في القصر الملكي بدولة الفرنجة زمن الميروفنجيين، تلك الوظيفة التي بدأت متواضعة في بداية أمرها، لكنها سرعان ما أخذت تسمو تدريجيا حتى صار صاحبها بمثابة الوزير الأول في الدولة، وعندما أصبحت السلطة الفعلية في يد شارل مارتل عام ١٠١هـ/٧١٩م، حاول الخروج بدولة الفرنجة من حالة الفوضى= =التي عانت منها بسبب التنافس الطويل بين رؤساء البلاط من جهة، والأخطار الخارجية التي أحاطت بدولة الفرنجة من جهة أخرى.

=

عندما اشتدت الهجمات على دول الفرنجة من جانب السكسون Saxons[1] شمالا والمسلمون جنوبا، إلا أنه أدرك أن ذلك الأمر يتطلب منه نفقات ضخمة فما كان منه إلا أن لجأ إلى منح الجنود الأرض على هيئة إقطاعات مع توفير الوسائل اللازمة لهم لاستغلالها مقابل الخدمة العسكرية[2]. ومن هنا نشأ نظام الإقطاع ذلك النظام الذي فرضته حالة الفوضى التي شهدتها أوروبا خلال القرن الثامن والتاسع الميلاديين من إغارات الفيكنج الشماليين[3]، والمسلمين والمجريين على غرب أوروبا ووسطها مما جعل أهالي أوروبا لا يأمنون على أنفسهم إلا في ظل القوة المسلحة[4]. وعندما تقلد

=

انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج١، ط٧، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ص١٩٥-١٩٦. ولمزيد من التفاصيل عن تطور سلطة رؤساء البلاط انظر:

Koenigsberger (H.G), A History of Europe, Medieval Europe, 400 – 1500, New York, 1994, PP. 80 – 82.

(١) السكسون: انقسم السكسون إلى أربعة أقسام: الوستفاليين الذين يسكنون بالقرب من جبهة الفرنجة ويسكنون على الايمز والألب وحول توبتورجر وبجانبهم شرقا الإنجيريين الذين يسكنون الألر والأوكر والألب، والتقسيم الرابع للسكسون هم النورد لبيجينيين الذين يسكنون هولشتين حول الألب وهم أخطر وأقصى أجناس السكسون. عن ذلك انظر:
عفاف صبره، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية، ص٥٥.

(٢) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص٤٨-٤٩، السيد البارز العريني، الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص١٦-٢٠، عفاف صبره، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية، ص٣٦٧.

(٣) الفيكنج: أو الشماليون فهم على خلاف الجرمان، لم يتأثروا بالمؤثرات اللاتينية، فقد ظلوا بمنأى عنها بحكم وضعهم الجغرافي في أقصى الشمال الغربي من أوروبا، ومن ثم جاءت تسميتهم بالشماليين، ولكنهم في غضون القرن الثامن الميلادي اندفعوا بقوة إلى المسرح الأوروبي ولعبوا دورا كبيرا في تشكيل غرب أوروبا حتى القرن العاشر، انقسموا إلى ثلاث شعوب كبرى النرويجيون – الدانماركيون – والسويديون. عنهم انظر:

- Kendrich, history of the Vikings, London, 1930.
- Mawer (A), The Vikings, London, 1964.
- Cohat (R), Le Viking Roi Mers, Paris, 1953.

(٤) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص٤٩ .

- Rowling (M.), everyday life in Medieval times, New York, 1968, P. 56.

شارلمان Charlemagne[1]، الحكم أكثر من اتخاذ الأتباع لما قام به من حروب عديدة ضد السكسون والمسلمين واللومبارديين[2].

إذا فإن النظام الإقطاعي الذي نشأ في دولة الفرنجة زمن الإمبراطورية الكارولنجية والذي انتقل إلى سائر البلاد الأوروبية الأخرى كان قائما على الارتباط الوثيق بين التبعية وحيازة الأرض مقابل الخدمات الحربية[3].

وهكذا انقلب الوضع تماما في أوروبا حيث اختفت التجارة في ظل هذا النظام الإقطاعي بعد أن انحلت السلطة العامة وعاد المجتمع لحكم قروى محض وهو ما ترتب عليه اضمحلال المدينة وحضارتها، فأصبحت الأرض المصدر الوحيد للرزق حيث عاشت جميع طبقات المجتمع على ما تنتجه الأرض من غلة سواء كان ذلك من نتاج عملهم أو نتاج المكوس المفروضة عليها، وبذا لم تعد ملكية الأرض ذات استخدام اقتصادي، بل صارت الحياة الاجتماعية كلها قائمة على امتلاك الأرض[4].

وقد عاشت أوروبا في ظل هذا النظام الإقطاعي قرونا طويلة، امتاز خلالها هذا النظام بدقة كبيرة في التنظيم. فقد سار وفق عدد من الالتزامات المتبادلة بين

---

(1) شارلمان (١٥١-١٩٩هـ/٧٦٨-٨١٤م): ولد شارلمان حسب رواية اينهارد Einhard ، حوالي عام ١٢٦هـ/٧٤٣م، ونشأ هو وأخوه كارلومان نشأة الملوك في بيت أبيهم بيبين القصير Pippin، وتوجا في حياة أبيهما. وقد توج إمبراطورا للرومان عام ١٨٤هـ/٨٠٠م على يد البابا ليو الثالث وقد حكم أوروبا ما يقرب من ستة وأربعين سنة. عنه انظر:

- Einhard, The life of Charlemagne, Thenth. Ed. Michigan, 1975.
- The Monk of Saint Gall, The life of Charlemagne, Trans by A.J. Grant, London, 1926., - Eastan (S.), The ERA of Charlemagne, New York, 1961., - Lamb (H.), Charlemagne, London, 1963., - Painter (S.), Forward of the life of Charlemagne, New York, 1975., - Pirenne (H.), Mohamed and Charlemagne, New York, 1939., - Kleinclausz (A.), Charlemange, Paris, 1934.

(2) عفاف صبره، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية، ص٣٦٨.

(3) عفاف صبره، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية، ص٣٦٨-٣٦٩.

(4) هـ. بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (الحياة الاقتصادية والاجتماعية) ، ترجمة/ عطية القوصي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص١٤-١٥، جوزيف نسيم، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، ط٢، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م، ص٢١٨-٢١٩.

السادة والأتباع بموجب اتفاقية التبعية المرتبطة بالأرض. فأصبح التابع بقيامه بالقسم بالولاء لسيده ملتزما بأمور منها الخدمة الحربية والواجبات الاجتماعية والمشورة، ومن ناحية أخرى يلتزم السيد بحماية التابع، وألا يسبب له ضررا جسديا، وأن يقوم بحمايته[١] .

لذلك عملت النظم الإقطاعية إلى حد ما على وضع العقبات أمام ازدهار النشاط التجاري، بالإضافة إلى ذلك، أصبح الجهل شائعا لدى جميع الطبقات لفهم دور التجارة. وظلت تنظر إلى التاجر على أنه طفيلي ومضارب ومرابي، وأنه كون ثروته نتيجة للخداع والسلب لا نتيجة لكده وتعبه، وزيادة على ذلك فإن الأحوال الاقتصادية في الضيعة[٢] الإقطاعية الكبيرة حددت العمل التجاري تحديدا كبيرا. فأنتجت كل مجموعة تقريبا كل ما هو ضروري أو لازم للحياة[٣]. إذ كان السيد الإقطاعي هو صاحب السلطة والسيادة داخل ضياعه والمتحكم في أحوال أقنانه مقابل ما يغدقه عليهم من الحماية. على أن هذه السلطة لم تقتصر على السادة العلمانيين فحسب، وإنما

([1])Pullan (B.), Sources For the history of Medieval Europe from the Mid-eighth to the mid-thirteenth century, Oxford, 1971, PP – 237 – 238.

لمزيد من التفاصيل عن حقوق التبعية المتبادلة بين السادة والأقنان وتطور السلطة الإقطاعية انظر:

See: Fulbert of charters, Fulberti Episcopi Carnotensis Epistolae, no. xxxviii, in M. Bouquet, Pecueil des Historiens des Gaules et de la France, X, 1760, 463.

See Also: odo of Cluny, De Vita Sancti Geraldi Auriliacensis Comitis, Ch. XXXii, in Migne, P.L., 133, 660 – I.

- Boissonnade (P.), Life and Work in medieval Europe, London, 1937, P. 159.

([٢]) الضيعة Manor: هي وحدة نظام الملكية الزراعية في تلك العصور، بالضبط كما كان الإقطاع وحدة النظام الإقطاعي، بمعنى أن الإقطاع كان يمكن أن يتألف من عدة ضياع، وكانت الضيعة أشبه شئ بمملكة أو عالم صغير يحكمها سيد يتمتع بسلطة شبه مطلقة، وتمتلك جميع مقومات الاكتفاء الذاتي. عنها انظر:

سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص٧٤، السيد الباز العريني، الحضارة والنظم، ص٥٦-٦٣، عفاف صبره، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية، ص٣٧٤.

([3])Boissonnade, Lif and Work, P. 159.

كان لرجال الدين نصيب فيها. فقد تمتع رؤساء الكنائس والأديرة بهذا الحق، إذ لجأ بعض الناس وعلى رأسهم الكونتات بوضع إقطاعاتهم وأنفسهم تحت سيطرة الكنيسة لينعموا بالحماية[1].

وهكذا أصبح النظام الإقطاعي هو سيد الموقف في أوروبا. وصارت الإقطاعية تشكل الوحدة الاقتصادية التي لابد أن تكفي نفسها بدون حاجة إلى الإقطاعات المجاورة[2]. إذ عندما كانت الدولة عامرة بأسواقها وما زالت التجارة قائمة فيها، استطاعت أن تقوم بتصدير منتجاتها خارجيا والاستفادة من عائداتها، كما شاركت في النشاط الاقتصادي العام بقيامها بتصدير المواد الغذائية وجلب السلع المصنعة اللازمة للاستهلاك المحلي، على اعتبار أنها شريكة في هذا الاقتصاد حيث استمرت الدولة في القيام بدورها بشأن

---

(1) لعل الاتفاق الذي تم بين كونت Hainault ورئيس دير Liége , بشأن تخصيص جميع المزارع الإقطاعية تحت سيطرة الكنيسة، بما فيها إقطاعات الكونت، تعطي مثالا واقعيا ومفيدا للاتفاق الذي وقع بين السيد والتابع. لمزيد من التفاصيل انظر:

See: Agreement between the count of Hainault and the Bishop of Liege, 1076. Gislebert of Mons, Chronicon Hanoniense, ed. L. Vanderkindere (Brussels,1904), 13 – 14.

وهو ما تطلب وضع بعض التشريعات لحفظ حقوق السادة لأن الناس أعطوها للكنيسة للتهرب من سلطة السادة، منها:

Agrement between the Bishop of the érouanne and the count of Flanders, 1150: T. Duchet and A. Girty, Cortulaires de I'eglise de Terouane (Saint – Omer, 1881), 22 – 3.

عن تطور الإقطاع وتطبيق العقوبات على الأتباع Vassals انظر:

See: The Count of Hainault Proceeds against a rebellious vassal, 1176: Gislabert of Mons, Chronicon Hanoniense, ed. Vander kindere, 119 – 20.

See Also: The Feudal relief: The agreement of Philip Augustus with count Baldwin VIII of Flanders (Baldwin V of Hainautt), 1192. Gislebert of Mons, Chronicon Hanoniense, ed. Vanderkindere, 275 – 5.

See Also: The Faudal relief: an ordinance of Louis Ix, May 1235. E.J.De Laurière, ordonnances des roys de France de la Troiseme race, I(1723),55 – 6.

(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢ ، ص٧٤-٧٥، عفاف صبره، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية، ص٣٧٤، جوزيف نسيم، تاريخ العصور الوسطى، ص٢١٩.

ممارسة المقايضة التبادلية مع العالم الخارجي. لكن هذا النشاط سرعان ما توقف، لا لأن الدولة صارت عاجزة عن القيام به، وإنما لأنه لم يعد هناك تجار يمكنها البيع لهم، ولا مشترين تستطيع من خلالهم تصريف منتجاتها. وهو ما عرف باقتصاد الضيعة المغلقة أو نظام الاكتفاء الذاتي (Geschossene Hanswirtschoft) الذي عرف ببساطة "أنه اقتصاد بلا أسواق". ولم يكن هذا الاقتصاد من واقع اختيارها، وإنما فرضته الظروف الملحة، الأمر الذي ترتب عليه عدم وجود أسواق كبرى للمنتجات القروية في ذلك العصر[١].

لذلك فإنه من غير المجدي أن نبحث عن تجار محترفين آنذاك. إذ لم يكن متوفرا هذا في أوروبا سوى في صورة بعض اليهود[٢]، الذين قدموا من أقطار البحر المتوسط الإسلامية، وأشهرهم الرازانية (الريدانية)[٣].

على أن هذه التجارة لم يقدر لها النمو والتقدم نظرا لموقف الكنيسة التي حرمت التجارة والربح الناتج عنها بل ظلت تنظر إلى الكسب التجاري على أنه غير حلال وأنه غير مشروع، وأن الأرض هي مورد الرزق الوحيد الطيب الذي يستطيع الإنسان أن يعيش من خلاله[٤]. لذا فقد اقتصرت المعاملات التجارية داخل أوروبا على نظام المقايضة البدائي في السلع الضرورية، ولم يعد للنقود مكانة كبيرة في التجارة نظرا لندرتها الشديدة[٥].

---

(١) بيرين، تاريخ أوروبا، ص١٦، سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص٧٥، عفاف صبره، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية، ص٣٧٤، هـ. ل. ب. موس، ميلاد العصور الوسطى ٣٩٥-٨١٤م، ترجمة/ عبد العزيز توفيق جاويد، والسيد الباز العريني، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٧، ص ص٣٧٧-٣٧٨.

(٢) عن دور اليهود في تجارة أوروبا انظر: الفصل الأول، مبحث انتعاش التجارة العالمية ص١٠٢-١٠٦.

(٣) بيرين، تاريخ أوروبا، ص١٧-١٨.
التجار اليهود الرازانية: هم تجار اشتهروا بالتكلم بعدد من اللغات كالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية، وأنهم كانوا كثيري الأسفار بين المشرق والمغرب لجلب السلع والبضائع للمتاجرة فيها. كما وصلوا إلى الهند والصين وجلبوا السلع منها وباعوها في القسطنطينية أو للروم أو للفرنجة، مما يظهر دورهم الواضح في ممارسة التجارة آنذاك. عن ذلك انظر: ابن خرداذبه (ت حوالي ٢٣٦هـ/٨٥٠م)، كتاب المسالك والممالك، طبع بمدينة ليدن، ١٨٨٩م، ص ص١٥٣-١٥٤.

(٤) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢ ، ص٩٠، جوزيف نسيم، تاريخ العصور الوسطى، ص٢١٨.

(٥) عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب (تجارية – ثقافية – صليبية)، ترجمة/ فيليب صابر سيف، ط١، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٢م، ص١٥٣.

وعلى ذلك فقد قام كل واحد من السادة الإقطاعيين باتخاذ كل الترتيبات اللازمة لأن يعيش على إنتاج مزرعته معتمدا على جهود أقنانه وما ينتجونه محليا، بل إنه لم يكتف بذلك وإنما أراد أن ينتج في إقطاعيته، ما لم يستطع استيراده من الخارج، مثل الأدوات والآلات والملابس التي يحتاجها لزراعة أرضه ولملابس خدمه. ومن أجل ذلك ظهرت الورش الصناعية الصغيرة التي ميزت نظام الدولة في أوائل العصور الوسطى، والتي حلت بسبب غياب التجارة والصناعة[1].

وبرغم اتخاذ اقتصاد أوروبا آنذاك هذا الطابع الزراعي البحت، إلا أنه لم يلبث أن أصبح له صفة تجارية مع مرور الوقت، بسبب ظهور مجتمعات الأقنان التي فضلت العيش بجوار القصور والحصون والأديرة طلبا للحماية في هذا العصر الإقطاعي ونظرا لما تميزت به من كثافة إلى جانب تمتعها بالحماية والسلم دفعها ذلك إلى القيام بنشاط صناعي محدود – إلى جانب فلاحة الأرض – تمثل في النجارة وصناعة الجلود أو الأواني الفخارية ثم قيامهم ببيع إنتاجهم هذا في أقرب سوق محلي، وهكذا بدأت هذه المجتمعات تعتمد على القرى والمناطق المجاورة من أجل تصريف إنتاجها البسيط[2].

الأمر الذي أدى إلى وجود أسواق لتصريف هذه المنتجات الزائدة عن حاجة هذه المجتمعات الاستهلاكية، إلا أنها لم تكن لتحمل طابعا تجاريا من الدرجة الأولى وإنما كان يكفي أن تحمل الطابع المحلي فحسب.

على أن هناك العديد من العوامل التي ظهرت في المجتمع الأوروبي أدت إلى زيادة الإنتاج وبالتالي دعت إلى التوسع في أعداد الأسواق المحلية بصورة ملحوظة، منها ازدياد الأعداد السكانية في أوروبا بشكل ملحوظ، وقد أمدت هذه الزيادة أوروبا بقوة بشرية كان لها أهميتها في التوسع. إلى جانب ما حدث من كثرة الإنتاج الزراعي، نتيجة لاستخدام أدوات زراعية جديدة، كالمحراث الثقيل الذي يسير على عجلات، واستخدام الخيل في الزراعة، إلى جانب تطبيق نظام الدورة الثلاثية في

---

(1) بيرين، تاريخ أوروبا، ص١٦.

(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص ص٨٩-٩٠، محمد محمد مرسى الشيخ، النظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، دار المعارف الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٦م، ص٦٨.

الزراعة، وما قاموا به من إزالة الغابات، وبناء السدود، الأمر الذي أدى إلى نمو التجارة خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين بناء على هذا الرخاء[1]. فانتشرت الأسواق في أوروبا نتيجة لذلك، إلا أنها لم تكن سوى أسواقا إسبوعية صغيرة، أقيمت بهدف أن يعرض المزارعون القادمون من الضواحي فيها بعض المنتجات الريفية الزهيدة، كقيامهم ببيع عدد قليل من البيض، والدجاج، أو بعض الصوف أو الملبوسات المنزلية. على أن المعروض في هذا السوق للبيع لم يكن ذو قيمة عالية، إذ كان يساوي ما يقدر بعدد قليل من البنسات Pences[2]، فحسب[3].

ولعل أوامر شارلمان Charlemagne الخاصة لأقنان ولاياته بعدم شغل أنفسهم بالأسواق تدل على أنهم كانوا مشدودين إليها لرغبتهم في الاستمتاع بهذه الأسواق دون أدنى اهتمام بالتجارة نفسها[4]. كأن هذه الأسواق جذبت الناس للمشاهدة والمتعة دون ممارسة التجارة في حد ذاتها.

ازدادت الأسواق المحلية في العصر الكارولنجي Carolingian بصورة كبيرة، حيث كانت هذه الأسواق تقام عادة لمدة يوم أو يومين في بعض أيام الأسبوع، وكانت تتلاءم مع الاقتصاد الزراعي الذي هيمن على البلاد باضمحلال التجارة[5].

وقد أخذت الأسواق المحلية في التزايد من بداية القرن التاسع، حيث لم يوجد أسواق ذات سمة تجارية كبرى باستثناء سوق سانت دنيس St. Denis[6]، الواقع على

---

(1) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم، ص ص١١٤-١١٥، محمد مرسى الشيخ، النظم والحضارة، ص٦٧.

- Adelson (H.L.), Medieval, Commerce, New York, 1962, PP. 69 – 70.

(2) البنس Pence : عملة فضية تزن كل وحدة منها اثنين من الجرام، ونصف البنس يسمى أوبولي Oboli، وكان يستخدم في التعامل. عن ذلك انظر:
عفاف صبره، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية، ص١٨٤.

(3) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص١١١، بيرين، تاريخ أوروبا، ص١٧.

(4) بيرين، تاريخ أوروبا، ص١٧.

(5)Hoyt (R.S.), Chodorow (S.), Europe in the middle ages, New York, 1976, PP. 266 – 267.

(6) إذ يعد من أشهر الأسواق التي أقيمت بالقرب من المزارات المهمة وأضرحة القديسين، وقد اعترف به بيبن القصير عام ١٤٢هـ/٧٥٩م، ومنذ ذلك الوقت وهو في نمو مستمر بفضل قربه =

بعد سبعة أميال من باريس Paris[1]، وكان هذا السوق وأمثاله ذا شهرة دينية – مثل أسواق الموالد في البلاد الإسلامية – تأتي إليه الناس في جموع غفيرة من مختلف البلاد المسيحية بقصد الزيارة والتبرك ثم ممارسة البيع والشراء[2].

حاز سوق القديس دنيس St. Denis شهرة كبيرة في الغرب الأوروبي، وكان بمثابة تمهيد للأسواق التجارية الكبرى التي ظهرت في أوروبا فيما بعد كأسواق شامبني Champagne التي تقع في الشمال الشرقي من فرنسا[3]، وغيرها، إذ أقيم هذا السوق سنويا، وامتد لفترة محدودة من الوقت وأمه الناس من بلدان أوروبية كثيرة بهدف التبرك والبيع معا.

يعد هذا السوق واحدا من أشهر وأقدم الأسواق في أوروبا الغربية، وقد أنشأه الملك داجوبرت Dagobert (توفي عام ١٨هـ/٦٣٩م) [4]، ملك الفرنجة تحت رعاية رهبان القديس دنيس. وإن كان البعض يشكك في صحة هذا الأمر – إلا أن هذا السوق كان يتوافر به كل الملامح المميزة لسوق العصور الوسطى. فقد تميز – على سبيل المثال – بأنه سوق سنوي، شغل فترة محددة من العام، وجمعت فيه الضرائب بصورة مقررة، وجاءه الناس من أماكن بعيدة ومختلفة، وإن لم يرد فيه ذكر لوجود محكمة به بالرغم من أن الاحتكار كان موجودا خلال فترة السوق[5].

=

من باريس حتى أصبح يعرف بسوق الشعب. انظر: عفاف صبره، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية، ص٣٨٣.

(1)Setton (K.M.), A History of the Crusades, Vol.1, Wisconsin 1969, P. 479 , 656.

(٢) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا،ج٢، ص ص١١٠-١١١.

(3)Setton, A History of the Crusades, Vol.1, P. 636.

(٤) داجوبرت الأول (٦٠٥-٦٣٩) هو آخر ملوك الأسرة الميروفنجية حكمها حكما اسميا فقط، وأصبح ملكا على أوستريا Austrassa ٦٢٣م وعلى بقية المملكة ٦٢٩م، أنقذ مملكته من هجمات القوط الغربيين بمعاهدة الصداقة مع الإمبراطور البيزنطي هرقل عام ٦٢٩م وغير مركز عاصمة بلاده من أوستريا إلى باريس. عنه انظر :

The New Encyclopaedia Briatannica, Vol. III, London, 1974, P. 344.

(5)Cave (R.C.), Coulson (H.H.), A Source Book For medieval economic history, New York, 1965, P. 114.

أصدر الملك داجوبرت Dagobert أوامره بإنشاء هذا السوق بناء على طلب والتماس أمرائه ورعاياه، مستغلين قداسة هذا المكان بفعل ما اكتسبه من تشريف من قديسهم وحاميهم الجليل دنيس Denis[1]، حيث كان يتم في أوروبا العصور الوسطى تقديس رفات الأنبياء والقديسين، وكل ما ارتبط بهم من أغراض مادية كالملابس والأسلحة وغيرها، مما يعد مصدرا للبركة والشفاء، كما نسبوا إليها أيضا المعجزات[2].

ولعل هذا الأمر يتشابه مع ما يحدث في مجتمعنا العربي والإسلامي الآن، من انتشار الأضرحة الخاصة بالأولياء الصالحين إذ يأتي الناس إليها من مختلف الأقطار للزيارة والتبرك والصلاة، وليس من شك أنها تجلب رواجا اقتصاديا للمكان الذي أقيم فيه الضريح خاصة زمن الاحتفال بهذا الولي، وهو ما يعرف في عالمنا الإسلامي وبصفة خاصة فى مصر بالموالد[3].

وقد أمر داجوبرت Dagobert بإنشاء هذا السوق حتى يجتمع فيه جميع التجار الموجودين في مملكته إلى جانب التجار القادمين من وراء البحار، على أن يكون هذا الأمر مرة واحدة سنويا، في تجمع القداس المقام في التاسع من أكتوبر على أن يقام هذا التجمع في الطريق المؤدي إلى باريس Paris في المكان المسمى بمرتفعات سانت مارتن St. Martin's Hill[4] إلى جانب

([1])Patrologiae Cursus Completus, Vol. LXXX, Paris, 1850, A.D. 629, P. 510, by Migne (J.P.).

([2]) الأمين عبد الحميد أبو سعدة، التوظيف السياسي لرفات القديسين ومتعلقاتهم المقدسة في أوروبا العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد الخامس والثلاثون، أغسطس ٢٠٠٤م، ص٤١٠.

([3]) كمولد السيد البدوي بطنطا، ومولد السيدة نفيسة والسيد الحسين بالقاهرة، وغيرها من الموالد التي تكون وسائل جذب للمنطقة مما يحقق رواجا غير مسبوق نظرا للأعداد الهائلة التي تأتي إلى الأضرحة. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، السيد البدوي شيخ طريقة، القاهرة، د.ت، عفاف صبره، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، دور الفقهاء وعلماء المسلمين في جهاد الصليبيين، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٨٥م، ص١٠١.

([4]) يقع دير سانت مارتن St. Martin على بعد خمسين ميلا غرب مدينة بودا Buda المجرية، أما المدينة كانت تقع بالقرب من بروفانس. عن ذلك انظر:

Setton, A history of the crusades, vol. 1, P. 656.

موظفين معينين من قبله في هذا السوق من أجل الإشراف عليه، كما كان يتم الإعلان عن هذا السوق حتى يعلم به الجميع فيستعدوا له، خاصة وأن الناس قد قدموا إليه من وراء البحار وصولا إلى ميناء الروين Rouen[1]، وغيره من المواني، للشراء[2]. الأمر الذي يدل على أهمية هذا السوق، لما حمله من طابع دولي فقد جاءه التجار من كل الأماكن[3].

حددت فترة انعقاد هذا السوق على أن يستمر لمدة أربعة أسابيع، حتى يستطيع التجار القادمون من لومبارديا Lombardy ، وأسبانيا Spain ، وبروفانس Provence، والبلاد الأخرى الذهاب إلى هناك[4]. وذلك لأن التجار الأوربيين اعتادوا منذ القرن الحادي عشر الميلادي التردد على الأسواق التجارية الكبرى التي كانت تقام في الغرب الأوروبي، مثل سانت مارتن St. Martin في مقاطعة بروفانس Provence، والقديس دنيس St. Denis قرب باريس. والدليل على ذلك أن البابا جريجوري السابع[5] (٤٦٦-٤٧٨هـ/١٠٧٣-١٠٨٥م) كتب إلى العديد من الأساقفة الفرنسيين عام ٤٦٧هـ/١٠٧٤م يهاجم الملك الفرنسي الذي سمح لتجار إيطاليين بزيارة أسواق فرنسا وسلبها[6]. ومما حقق رواجا كبيرا لسوق القديس دنيس بالتحديد

---

(1) ميناء الروين: يقع في مدينة روين Rouen الفرنسية التي تقع في الناحية الشرقية. عنه انظر:
Setton, A History of the crusades, Vol.I, P. 655.

(2)Patrologiae Cursus Completus, Vol. LXXX, P. 510.

(3) إذ شوهد في سوق سانت دنيس في عهد الملك الميروفنجي بروفانسين إلى جانب لومبارديين وأسبانيين. عن ذلك انظر: ف. هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٣٨، حاشية (١).

(4)Migne, patrologiae Cursus Completus, Vol. LXXX P. 510.

(5) يعد البابا جريجوري السابع أعظم بابوات العصور الوسطى، كان مؤمنا بسمو البابوية وقد تبنى سياسة أن البابوية هي مصدر جميع السلطات السياسية والدينية، الأمر الذي أدى به إلى الدخول في صراع طويل ضد السلطة . عن ذلك انظر:
سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص ص١١-١٢، ولمزيد من التفاصيل انظر:
- Ullmann (W.), The Growth of papal Government in Middle Ages, London, 1955.

(6) عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (بحث في النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ق١٣/١٤م)، ط١، دار دمشق، ١٩٨٠م ، ص ٤٢.

هو أن براءة داجوبرت Dagobert، الخاصة بإنشاءه منحته امتيازات تجارية مهمة عززت من مكانته بصورة كبيرة وقد تم إصدار هذه البراءة في الحادي والثلاثين من شهر يوليو في السنة الثانية من حكم داجوبرت، وتم توقيعها بيده وختمت بخاتمه[١].

تظهر أهمية هذه البراءة فيما حوته من معلومات عن إقامة السوق في أوروبا العصور الوسطى، خاصة وأن هذا السوق يحمل في طابعه بداية لما ستشهده أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين من ظهور للمعارض التجارية الكبرى. فقد اتسم بكونه معرضا دوليا في وقت كانت فيه الأسواق الأوروبية كلها تقريبا محلية.

هذا التطور الذي شهده سوق القديس دنيس St. Denis بسبب الاحتفالات الدينية، شهدته أيضا عدد من الأسواق الأخرى لأن التجار يتجمعون تلقائيا في أماكن تجمع المسيحيين، مثلما حدث عند كاتدرائية نوتردام Noter-Dame[٢]، الواقعة في باريس Paris - والتي كان بها صليبا اعتقد المسيحيون في قداسته، ولذلك كانوا يتوجهون إلى هذه المدينة للتبرك بهذا الصليب[٣]. نظرا لأن رفات القديسين، وآثارهم[٤] كانت ذات شأن كبير في أوروبا العصور الوسطى، وصار هناك تنافس شديد من أجل الحصول عليها لما يحققه وجودها داخل مدينة من حماية سياسية وازدهار تجاري. وقد ظهرت أهميتها السياسية في أوروبا عندما عمت الفوضى أنحاء أوروبا العصور الوسطى بعد الهجمات الجرمانية[٥]، الأمر

([1])Migne, Potologiae Cursus Completus, Vol. LXXX, P. 510.

([٢]) كاتدرائية نوتردام: أسست عام ١١٦٣م، على يد موريس دوسوللي Maurice de Sully أسقف باريس والبابا اسكندر الثالث Alexander، وقد اكتمل بناؤها وتطورها عام ١٢٦٠م في ظل حكم القديس لويس. عن ذلك انظر: ياسر عبد المعبود عبد الله، جامعة باريس دورها في النهضة الفكرية بأوروبا في العصر الوسيط، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس، كلية الآداب، قسم التاريخ، ٢٠٠٢-٢٠٠٣، ص٢٠.

([3])Rowling, everyday life in medieval times, P. 54.

([٤]) الآثار المقدسة: في أوروبا العصور الوسطى، هي المخلفات الدينية Relics، كرفات الأنبياء والقديسين وما يتعلق بهم من أغراض مادية أعتقد أنها مصدرا للبركة. عنها انظر: الأمين أبو سعدة، التوظيف السياسي لرفات القديسين ، ص ص٤١٠-٤١٣.

([٥]) الجرمان: كانوا قبائل متفرقة ولم يكونوا شعبا واحدا وينتمون إلى الجنس الهند أوروبي. عنهم انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص٧٨، نظير حسان سعداوي، تاريخ انجلترا

=

الذي يظهر أهمية رفات القديسين ومخلفاتهم بالنسبة لأوروبا عامة في ذلك العصر، وبالنسبة للمنطقة التي توجد فيها بصفة خاصة، لذا فإن الكنائس والأديرة تستغل شهرة قديسيها كوسيلة جذب للمنطقة لذا فإن فكرة إقامة الأسواق في تلك المناطق كانت تلاقي رواجا كبيرا جدا آنذاك.

أسهمت الأديرة في أوروبا في تطوير العملية الاقتصادية داخل أوروبا مساهمة فاعلة، فشارك الديريون في جميع مناحي الحياة الاقتصادية (الزراعية، الصناعية، التجارية) حيث قاموا باستصلاح الأراضي البور وفلاحتها وصاروا يمتلكون أكبر نسبة من الأراضي الزراعية في أوروبا العصور الوسطى، وامتد دورهم إلى الميدان الصناعي أيضا حتى غدت العديد من الأديرة مراكز صناعية روعي فيها التخصص في العمل[1]. لذا فليس بغريب أن نجد العديد من الأسواق المحلية داخل أوروبا في ذلك العصر تقام وتعقد عند مداخل بوابات الأديرة مثلما كانت تقام عند مداخل القلاع وضواحي المدن[2]، ليبيعوا إنتاجهم من محاصيل أو صناعات بسيطة كالجلود والأصواف والأسلحة وغيرها[3].

ونظرا لما كان يحققه من أرباح وانتعاش ورواج للمنطقة التي يقام فيها فقد أصبح امتيازا يمنح من الملوك للسادة الإقطاعيين ولرجال الدين، وقد سعى الجميع للحصول عليه لما سيجنونه من أرباح مادية ومعنوية، لذلك تعددت هذه المنح في أوروبا العصور الوسطى.

ومن أمثلة المنح الممنوحة للأديرة لإنشاء سوق، كانت منحة الإمبراطور أوتو[4]

=

وحضارتها في العصور القديمة والوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٢٩.

ولمزيد من التفاصيل عنهم انظر:

- Tacitus, Germania (Trans. By G.F. Stout), Great Britain, 1915,

قام بترجمته إلى العربية : إبراهيم طرخان، تاكيتوس والشعوب الجرمانية، الخرطوم، ١٩٥٩م.

- Hubert (H.), Les Germanis, Paris, 1952.

(1) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص ص٣٢-٤٣.

(2)Boissonnade, life and work in medieval Europe, P. 159.

(3) محمد مرسي الشيخ، النظم والحضارة الأوروبية، ص١٠٠.

(4) الإمبراطور أوتو الأول أو العظيم: أوصى له أبوه هنري الأول Henry I قبل وفاته في يوليه عام ٣٢٥هـ/٩٣٦م، ليكون ملكا من بعده، وتوج ملكا في آخن Aachen بعد وفاة أبيه وهو في العشرين من عمره، كما توج إمبراطورا عام ٣٥١هـ/٩٦٢م على يد البابا حنا الثاني عشر في روما، =

(٣٢٥-٣٦٣هـ/٩٣٦-٩٧٣م)، والتي سمح فيها للدير الموجود في لورش Lorsch[١]، في منطقة بينشيم Bensheim[٢]، بإقامة سوق. وقد ورد في نص هذه الوثيقة الآتي: "بتدخل زوجتنا الحبيبة أديل هيد Adelheid، ووساطتها سمحنا لمقدم الدير الموقر جيربودو Gerbodo، رئيس الكنيسة المجيدة في لورش Lorsch بضرورة إقامة أسواق عامة في الدوار الخاص بالدير المسمى بينشيم Bensheim، وذلك لخدمة الإخوان الذين يخدمون الرب هناك"[٣].

يتضح من هذه البراءة أن رهبان هذا الدير قد سعوا وبذلوا ما في وسعهم للحصول على منحة لإقامة سوق خاص بالدير بدليل طلبهم من أديل هيد Adelheid، التوسط لدى زوجها الإمبراطور أوتو Otto للموافقة على هذا الموضوع. مما يؤكد الأهمية التي كانت تمثلها الأسواق للأديرة وغيرها من المؤسسات الدينية والعلمانية، وما كانت تحققه لها من انتعاش اقتصادي كبير، وما كان الملك ليبخل عليهم بالموافقة ما دام هذا الأمر سوف يعود عليه بالمصلحة ويحقق الاستقرار والرواج للمنطقة، أما إذا عاد بالضرر فإن الملك كان يرفض إقامتها[٤].

كانت حقوق الأسواق – التي يمنحها الملك – في بعض الأحيان ممتدة وواسعة

=

إذ يعد أوتو مؤسس الإمبراطورية المقدسة بالمعنى الذي يعبر عنه اسم هذه الإمبراطورية، والذي يعني ارتباط إيطاليا وألمانيا تحت سيادة حاكم واحد. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا،ج١، ص ص٣٠٠-٣٠٨. ولمزيد من التفاصيل انظر:

- Bryce (J.), The Holy Roman Empire, London, 1907.
- Tout (T.F.), The Empire and the papacy, London, 1924.
- Orton (C.W.P.), Outlines of Medieval History, Cambridge, 1924.
- Barraclough (G.) The origins of modern Germany, Oxford, 1947.

(١) لورش Lorsch : ضيعة تقع جنوب ولاية Hessen، غرب ألمانيا. عنها انظر:

The New Encyelopaedia Britanniea, Vol. VI, P. 333.

(٢) بينشيم Bensheim : مدينة بألمانيا، تعتبر دوقية كبيرة، وهي ولاية تابعة لـ Strakenburg عنها انظر :

Grande, Encyclopedie, T.VI, Paris, S. D, P. 216.

(3)Gengler (H.), Codex Juris Municipalis Germaniae, Erlangen, 1867, - A.D. 956, P. 179.

(4)Paris, June 3, 1306, in: Lopez (R.), Raymond (I.), Medieval Trade in the Mediterranean World, New York, 1955, P. 78.

حتى تشمل عددا من المناطق ولكن بعضها الآخر كان مقتصرا على منطقة بعينها، كان السيد المحلي المسئول يمنح حقوقا مطلقة داخل الضيعة الإقطاعية[١]. وكان هناك أيضا وصف دقيق جدا للضرائب المحلية التي من الممكن أن تفرض داخلها. مثل المنحة الخاصة بالملك إدجار Edgar[٢] (٣٣٢/٣٣٣-٣٦٥هـ/٩٤٣/٩٤٤-٩٧٥م).

والتي لم يكتف فيها بمنح رئيس الأساقفة حق إقامة السوق فحسب، وإنما تعدته إلى إعطائه حق فرض الضريبة، إلى جانب منحه حق ممارسة السلطة القضائية داخل السوق والمنطقة المقامة فيه دون أن يكون لأي شخص حق التدخل إلا لمن يعينهم رئيس الأساقفة، كما أكد الملك على أن كافة الحريات والامتيازات التي أعطاها من سبقه سوف تظل باقية. مما يؤكد أهمية مثل هذه المنح، وما تدره من منفعة على الجميع[٣].

كانت المنح التي تقدم للضياع الإقطاعية تشتمل ضمنيا على حق إقامة السوق، إلا أن البعض أراد التأكيد على ضرورة إصدار منحة السوق منفردة حتى لا يعارض أحد قيامه[٤]. وكثيرا ما يكون السوق موجودا من قبل ثم يتم التأكيد على أحقية استخدامه عن طريق منحة من الملك لأحد السادة من العلمانيين أو من رجال الدين. ففي عامي ٥٤٨-٥٤٩هـ/١١٥٣-١١٥٤م، أمر هنري الأنجوي Henry of Anjou رجال بيركشير Berkshire بالتوجه إلى رئيس دير سوق Reading في Thatcham لإخباره بحق

---

(1)Cave, Coulson, A Source Book; PP. 115 – 116.

(٢) الملك إدجار كان ملكا لـMarcians و Northumbrians منذ عام ٩٥٧م، كما أصبح ملكا على منطقة السكسون الغربية عام ٩٥٩م، كما أنه أصبح ملكا على مملكة الإنجليز في نفس هذا العام، تميز عهده بالسلم، كما أنه يعتبر نموذجا لإحياء الديرية الإنجليزية. عنه انظر:

The New Encyclopaedia; Vol. III, P. 788.

(3)Anglo – Soxon Chronicle, Translated by the Rev. James Ingram, London, 1917, A.D.963, P. 93.

(4)Britnell (R.H.), English Markets and Royal Administration Before 1200, in the economic history Review, New Series, Vol. 31, No. 2. (May, 1978), P. 185.

استخدام السوق كما استخدموه من قبل منذ أيام جده[1]. كما اشتملت منح السوق حق ضرب العملة – مثلما حدث في سوق بريمن Bremen – إضافة إلى أن التجار الذين يذهبون إلى هناك سوف يكونوا تحت رعاية وحماية الملك رغم سلطة رئيس الأساقفة على السوق[2]. وكان سوق بريمن Bremen هذا، منحة من الإمبراطور أوتو Otto العظيم إلى رئيس أساقفة هامبورج Hamburg. وقد ورد في هذه المنحة على لسان أوتو Otto ما نصه أنه : "إذا وافقنا على طلبات رجال الدين في كل مراكز العبادة، فإننا نعتقد وبلا شك أن ذلك سيمنحنا ثواب الآخرة. لذلك ليكن معلوما للجميع أنه حبا لله وافقنا على التماس Adaldagus رئيس أساقفة هامبورج Hamburg المبجل وسمحنا له بإقامة سوق في المكان المسمى بريمن Bremen، ومنحناه السيادة عليه وحق جمع الضرائب وسك العملة وغيرها من الحقوق الأخرى. وأننا نضع تحت حمايتنا الخاصة كل التجار الذين يعيشون في هذا المكان ونمنحهم نفس الحماية والحقوق الخاصة بأولئك الذين يعيشون في المدن الأخرى من رعايانا ولن يكون لأحد سلطة هنا سوى رئيس الأساقفة أو من يفوضهم"[3].

وقد وقعها وختمها الإمبراطور أوتو Otto بخاتمه في ١٠ أغسطس عام ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م وبناء عليه أصبح من حق رئيس الأساقفة أن ينشئ السوق، وأن يتمتع بكافة الحقوق داخله، من فرض الضرائب وسك العملة وغيرها من الحقوق التي كانت من حق الإمبراطور فقط إلا أنه بموجب المنحة انتقلت السلطة إلى رئيس الأساقفة، مع تمتع تجار السوق بحماية ورعاية الإمبراطور أوتو العظيم.

أقيمت المعارض والأسواق الاسكندنافية Scandinvian أيضا، على نفس النمط السابق، فوجد بها بعض الأسواق التي تحمل سمة المعارض شأنها في ذلك شأن

---

(1)Britnell, English Markets, P. 185.

(2)Cave, Coulson, A Source Book, P. 116.

(3)M.G.H., Diplomate, Regum I, Th. Sickel, Ed., Hanover, 1879 – 1884, A.D. 965, PP. 422 – 423.

معرض القديس دنيس St. Denis. ومن أمثلة ذلك سوق أوبسالا Upsala[1]، والذي كان معرضا فعلا. حيث فاق سوق القديس دنيس St. Denis خلال فترة وجيزة رغم عدم وجود أعداد كبيرة من التجار به. وإقامة مدينة السوق لم يكن شيئا معتادا، ولكن السوق كان له فائدة عظيمة للملك ولذلك كان من الطبيعي أن يتم إنشاء الإثنين معا[2].

أما بشأن سوق أو معرض أوبسالا Upsala، فقد جرت العادة قديما في شوفييزجد Svithjod التي سادتها الوثنية أن يتم تقديم الأضحية الرئيسية في أوبسالا Upsala. وكانت هذه الأضحية تقدم من أجل إبداء السلام والنصر للملك وكان ذلك مصحوبا بقدوم أناس كثيرين من كل أرجاء Svithjod. وقد قام أهل السويد بجميع أعمالهم في هذا المكان، فالأسواق والمقابلات أو الاجتماعات الخاصة بالشراء كانت تتم وتستمر لمدة أسبوع. وبعد دخول المسيحية إلى شوفيزجد Svithjod ظلت المعارض والأسواق التي تقام هناك كما كانت من قبل. لكن بعد أن تأصلت المسيحية فيها عام ٣٨٩هـ/٩٩٨م، ولم يعد الملك يسكن في أوبسالا Upsala، تغيرت أماكن وأوقات السوق إلى منطقة Candlemas ومنذ ذلك الحين استمرت مدته ثلاثة أيام فقط[3].

أما بخصوص إقامة مدينة السوق، فالمقصود بذلك أن يكون إنشاء السوق سابق لإنشاء المدينة بمعنى أن يتم إقامة السوق في منطقة ما، ثم يقدم الناس عليه للشراء فيستقرون حوله ليشكلوا بذلك مدينة حول هذا السوق. ورغم أن هذا لم يكن شيئا معتادا، إلا أنه كان ممكن الحدوث لأن السوق كان يمثل فائدة عظيمة للملك، وبالتالي كان من الطبيعي أن يتم إنشاء السوق والمدينة معا.

---

(1) مدينة أوبسالا Upsala : هي مدينة في اسكندناوة. وهي من مناطق الفيكنج الشماليين.

(2)Cave, Coulson, A source Book., P. 117.

(3)The Heimskringla, A History of the kings of Norway, Translated from the Nerwegian of Snorri Sturlason by Samuel Laing, Esq. the Hon. Rasmus B. Anderson, Ed. Vol. I (The Norroena Society, New York, 1911). In Anglo-Soxan Classice, Vols. VII, VIII. – About A.D. 998, P. 342).

ومن أمثلة ذلك خروج الملك أولاف ترايجفاسون Olaf Trygvason[1] مع شعبه إلى منطقة نيداروس Nidaros[2]، وإقامته منازل على سفح نهر Nid من أجل أن تكون مدينة للتجار، ومنح شعبه الأرض حتى يشيدوا منازلهم عليها. وبني قصر الملك في الجهة المقابلة لـ Skipakrok، ثم انتقل إلى هناك، وفي الحصاد كان معه كل ما يحتاجه للإقامة في فصل الشتاء وحوله كثير من الناس[3]. إذا فإن الملك لم يجد أي غضاضة في أن ينتقل بشعبه إلى المنطقة المقام فيها السوق وأن يستقر حولها لما سوف يعود عليه من فائدة عظيمة وما سيجنيه من ربح وفير.

وإذا اتجهنا ناحية المعارض والأسواق التي تم إقامتها في بلاد الشمال، نذكر البضائع التي يتم التعامل فيها في هذه الأسواق، كما لم يمنع العداء بين أهل هذه المناطق من إقامة الأسواق، حتى أنهم كانوا يعقدون هدنا تستمر فعاليتها حتى نهاية السوق[4].

وقد ورد في هذا النص المقتبس أنه "عندما جاءوا إلى منطقة Bjarmaland توجهوا فورا إلى سوق المدينة وبعدها بدأت فعاليات السوق وكل من معه مال اشترى به بضائع فحصلوا على فراء وجلود إذ كان مع كارل karle مبلغا كبيرا من المال اشترى به جلودا وفراءا وعندما انتهى السوق عادوا عبر نهر Vina في الوقت الذي أوشكت فيه الهدنة على الانتهاء"[5].

---

(1) الملك أولاف ترايجفاسون : هو ملك الفيكنج النرويجيين (٩٩٥-١٠٠٠م) كان مشهورا فى الأدب الاسكندنافي ولعب الدور الرئيسي في تنصير الشعب النرويجي. عنه انظر:

The New Encyelopaedia Britannica, Vol. VII, P. 507.

(2) منطقة نيداروس : كانت مقرا لملوك النرويج ، وتقع على نهر Nid، ويرجع تاريخها إلى عام ٩٩٧م. عنها انظر:

Ramsay (D.), Universal History Americanised, New York, 1819, P. 137.

(3) The Heimskringla, A History of the kings of Norway, Vol.I, About A.D. 998, P. 201.

(4) Cave, coulson, A source Book, P. 118.

(5) The Heimskringla, A History of the kings of Norway, Vol.I, A.D. 1026, P. 201.

الأمر الذي يدل على أن إقامة الأسواق والمعارض كان أمرا مهما وضروريا لحياة الناس، حتى أنهم كانوا يستغلون فترات الهدن لإقامتها، وأن هذه الهدن كانت تستمر حتى انتهاء المعرض ثم تنتهي. وكان الناس ينتظرون مثل هذه المعارض أو الأسواق بفارغ الصبر، بدليل قوله: أنهم توجهوا فورا إلى أسواق المدينة، وذلك نظرا لاحتياجهم الشديد لشراء ما يلزمهم من البضائع. ولعل تركيز النص على شرائهم الفراء والجلود يظهر مدى ما كانت تشكله هذه السلع من أهمية لهم نظرا لطقس تلك الجهات المتسم بالبرودة الشديدة. يظهر ذلك بصورة واضحة من أن الشخص الذي يدعى كارل Karle اشترى بكل ما معه من مال، وهو مبلغ كبير، جلود وفراء، كأنه بذلك يحاول أن يؤمن احتياجاته من هذه السلع الضرورية اللازمة للحياة في تلك الجهات.

ونستطيع القول بأن معظم المدن قد وجد بها أسواقها العادية، بينما وجد في بعضها فقط أسواق موسمية، وكانت تلك الأسواق تقام في كل عام من "الأكشاك" أو الظلل الخشبية التي تنصب لهذا الغرض. فكانت السوق الموسمية لستوربردج (الواقعة بالقرب من كمبردج Cambridge) تقام سنويا وتستمر في انعقادها لمدة ثلاثة أسابيع ويأتي إليها التجار من كل أنحاء أوروبا. كما أقامت توتنجهام Totingham سوقا موسمية للأوز، وكان لمدينة لندن London أيضا سوقها الموسمية الشهيرة بسوق سنت بارثولومبو Saint – Parthlomio والتي كانت تقام تحت أسوار كنيستها. وكان يتم افتتاح رسمي لها كل عام. وليس من شك في أن تلك الأسواق كانت تجذب جموعا غفيرة من الناس[1].

الأمر الذي يؤكد أن ذلك العصر قد وجد به الأسواق المحلية والأسواق الموسمية أو السنوية جنبا إلى جنب ذلك منذ القرن الحادي عشر تقريبا، نظرا لما طرأ على أوروبا من انتعاشة اقتصادية كبيرة بفضل ظهور الطبقة البرجوازية التجارية وانضمامها إلى الطبقات العليا بما حققته من ثروات جديدة مما أثر بالتالي على نمو المدن وساعد على ازدهارها واكتمال بنائها، وما شهدته أوروبا من توسع أعطى تجارها دفعة كبيرة

([1]) ل. ج. شيني، تاريخ العالم الغربي، ترجمة/ مجد الدين حنفي ناصف، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت، ص ص١٥٢-١٥٣.

وصلاحيات جديدة حيث فتحوا لأنفسهم ميادين جديدة في أسبانيا Spain وجنوب إيطاليا وشرق أوروبا والمشرق. كما أصبح المسيحيون يشكلون الشخصيات الرئيسية في الشبكة التجارية. وأثرت كذلك التجارة التي تتم على مسافات بعيدة على حياة الكثيرين في أوروبا العصور الوسطى[١]. ومن المنح المهمة التي حصلت عليها أوروبا في حوالي منتصف القرن الحادي عشر، كانت منحة خاصة بمنطقة Donauworth[٢]، وتأتي أهمية هذه المنحة من أنها تتضمن حق إقامة سوق أسبوعي ومعرض سنوي في نفس الوقت[٣]. كانت هذه المنحة صادرة من الإمبراطور كونراد الثاني Conrad II (٤١٥-٤٣١هـ/١٠٢٤-١٠٣٩م)[٤]، في فبراير سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م، وهو العام السادس من اعتلائه عرش مملكته، حيث منح فيها المخلص Manigold ، حرية إقامة سوق وحرية تحصيل المال والضرائب وجميع المنافع العامة في Donauworth، الواقعة في منطقة Ries، الخاصة بالكونت فردريك Frederick، وذلك بإقامة سوق كل يوم سبت وفقا للمنحة التي قدمها أجداده لآبائه من قبل، إضافة إلى ذلك فقد أعطى الحق في إقامة معرض سنوي لثلاث مرات متتاليات ويعقد في بداية شهر مايو وفي اليومين التاليين في نفس المكان المحدد. على أن يتمتع جميع الوافدين إلى هذا السوق في قدومهم ورواحهم وفي أعمالهم التجارية بالسلام الذي حققته السلطة الإمبراطورية، وإذا سبب أي شخص أذى لهؤلاء الرجال مما أدى إلى إشاعة الاضطرابات في السوق فستفرض عليه غرامة مثلما يحدث في الأسواق المقامة في المناطق الأخرى[٥].

---

(1)Hoyt, Chodorow, Europe in the middle Ages, P. 266.

(٢) Donauworth : قرية تقع في مقابلة Blenheim. عنها انظر:

Nephew (H.), Irving (P.), The life and letters of washington Irving, Vol.II, N. D., P. 115.

(3)Cave, Coulson, A Source Book, P. 118.

(٤) كونراد الثاني: كان دوق سوابيا وتم اختياره ملكا، رغم معارضة أهالي اللورين، حيث توج في مينز عام ٤١٥هـ/١٠٢٤م، فقضى على القلاقل الداخلية، وتوج امبراطورا عام ٤١٨هـ/١٠٢٧م بيد البابا حنا التاسع عشر. عنه انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص ص٣١٧-٣٢١.

(5)Gengler, Codex Juris Municipalis Germaniae, A.D. 1030, P. 806.

نظرا لأن الأسواق كانت من أكثر المعالم اللافتة للنظر في التنظيم الاقتصادي لأوروبا العصور الوسطى، لدورها المهم الذي لعبته في هذا التنظيم وخاصة فيما بعد نهاية القرن الثالث عشر الميلادي. حيث تعددت هذه الأسواق في كل الأقطار، إلا أنها حملت شكلا جوهريا واحدا، الأمر الذي يجعلها ظاهرة عالمية، موروثة من داخل ظروف المجتمع الأوروبي، وبلغت ذروتها العددية في فترة التجوال التجاري، أما حين استقر التجار وأقاموا في المدن تضاءل عددها. أما تلك الأسواق التي نشأت في نهاية العصور الوسطى – والتي سنتناولها فيما بعد – فإنها كانت ذات طراز مختلف تماما عن سابقتها، وأهم سماتها أن أهميتها في الحياة الاقتصادية لم تكن تقارن بحياة سابقاتها[1].

على أن البعض يرى أن الأسواق Markets كانت أسوأ دينيا من المعارض Fairs، لأنها تقام في أيام الأعياد وبالتالي تفوت على الناس الطقوس الروحية والاستماع للمواعظ، كما أنهم يحضرون تلك المقابلات في الأسواق ضد أوامر الكنيسة ويخالفون فريضة الاستماع إلى القداس، وأحيانا أيضا تقام الأسواق في أراضي المقابر وأماكن مقدسة أخرى. إلى جانب ما يتم فيها من أمور مخالفة للدين كاستخدام الأيمان بصورة متكررة، حيث تجد أناسا يحلفون: "بالله لن أعطيك كل هذا للحصول عليها" أو "بالله لن آخذ ثمنا أقل" أو "بالله إنها لا تستحق كل هذا"[2]. ولا يخفى ما قد يتبع ذلك من ممارسة الكذب واستخدام الأيمانات الكاذبة ليخدعوا الناس ويضللوهم فيشترون منهم السلع وهي لا تستحق الثمن الذي أقسموا عليه. كما كانت تحدث في مرات أخرى معصية الرب بتطبيق مقتضيات السوق، والتي منها نكث العهود وعدم الأمانة، إلى جانب النزاع وانتشار العنف في بعض الأحيان، كما أن شرب الخمر كان أمرا واجبا[3].

([1]) بيرين، تاريخ أوروبا، ص ص٩٧-٩٨.
للاطلاع ومعرفة أوجه الاختلاف بين كل منها انظر الفصل الثاني ص١١٩.

([2])Jarrett, Bede, O.P., Social Theories of the middle Ages, P.164.
Translation by Father Jarrett of serm. Xcil, in Merchatis, by Humbert de Romans (Ernest Benng London, 1926) A.D. 1194 – 1277, P. 562.

([3])Jarrett, Bede, Social Theories of the Middle Ages, P. 164.

وبرغم كل ما سبق، إلا أن الأسواق لم يكن من الممكن الاستغناء عنها نظرا لما تشكله من ضرورة لازمة لحياة المجتمع، وأن هذا المجتمع كان يعتمد عليها في التزود بكل احتياجاته. لذا كان من الطبيعي أن تتواجد الأسواق والمعارض جنبا إلى جنب بصورة كبيرة إذ رغم أن ما حدث في أوروبا من تطور للنشاط التجاري منذ القرن الحادي عشر الميلادي، قد جعل هناك ضرورة لقيام المعارض الكبيرة Fairs، في جنوب أوروبا وغربها من أجل ممارسة العمليات التجارية الواسعة، وإتمام الصفقات التجارية الكبيرة، وجذب أكبر عدد ممكن من الناس، فظهرت المعارض الفرنسية الشهيرة في القرن الثاني عشر، مثل معارض شامبني Champagne الأربعة الشهيرة، ومعرض سانت دنيس St. Denis السابق ذكره، والمعارض التي وجدت في بوكير Beaucaire على نهر الرون Rhone[1] وفي شالون Challon على نهر الساءون Saon ، تلك المعارض التي جذبت بشهرتها ورخائها سيلا من الزوار الألمان المهاجرين إلى فرنسا والذين قدموا كتجار وحرفيين وجنود وطلاب علم[2]، ليس من شك في أن الأخيرين قد شكلوا مجموعة من المستهلكين داخل المدن الفرنسية، إذ مثل الجامعيون مجموعة من غير المنتجين، وسوقا من المستهلكين الذين لا ينبغي التقليل من أهميتهم العددية داخل المدن[3]، وقد كان هذا شأنهم في جميع المدن التي وجدوا فيها، ففي أوكسفورد Oxford على سبيل المثال، شكل طلابها الجامعيون أيضا مجموعة من المستهلكين، نظرا لأنهم كطلاب علم لم يكونوا عاملين، وبهذا مثلت الجامعة هيئة استهلاكية ضخمة في تلك الفترة، إذ قدر عدد طلاب جامعة أكسفورد Oxford في القرن الثالث عشر بحوالي ثلاثة آلاف

---

(1) بوكير : تشكل جزء من Gard ، تقع جنوب شرق فرنسا، على نهر الرون Rhone. انظر:
The New Encyclopaedia Britannica, Vol. I, P. 908.

(2) محمد مرسي الشيخ، النظم والحضارة، ص ص١٠٠-١٠١.

(3) ياسر عبد المعبود عبد الله، جامعة باريس ودورها في النهضة الفكرية بأوروبا في العصور الوسطى، ص٢٢١.

طالب، وهو ما يعتبر عددا ضخما بالنسبة لتعداد السكان في تلك الفترة[1]. وكان هؤلاء الزوار والمهاجرين يأملون في إنشاء جاليات ومستعمرات لهم بباريس Paris، وأورليان Orlean[2]، ومونبيليه Montpellier[3]، وأفينون Avignon[4]، بيد أن الأسواق المحلية Local Markets ظلت قائمة إلى جانب المعارض، لأنها قصدت إلى الإيفاء باحتياجات الناس البسيطة في المناطق التي أقيمت فيها والمناطق المجاورة لها[5]. بمعنى أن الاقتصاد الأوروبي الذي أخذ في التطور والنمو منذ أواسط القرن الحادي عشر، وأصبح اقتصادا تجاريا من الدرجة الأولى ومنفتحا على العالم الخارجي ولم يعد مقيدا بالارتباط بالأرض، أصبح لا يكفيه الأسواق المحلية، وإنما صار يتطلع إلى معارض كبرى تستطيع أن تصرف إنتاجه الضخم وتلائم حاجة اقتصاده المتطورة، وبهذا ظهر في أوروبا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين معارض تجارية كبرى تحمل السمة الدولية في طابعها، مما جعل الأسواق المحلية تتراجع إلى جانبها، وتمثل صورة باهتة إذا ما قورنت ببهاء الأولى.

كانت هناك العديد من الأسباب والعوامل التي أدت إلى ضعف الأسواق المحلية في مواجهة المعارض الكبرى، إلا أنها لم تقض عليها لأن أوروبا كانت ولا تزال في حاجة ماسة إليها أيضا وبهذا نجدها عامرة بالأسواق المحلية إلى جانب المعارض العالمية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ويشهد على ذلك أن التنظيمات الخاصة بالنقابات التجارية لباريس Paris ، في القرن الثالث عشر ذكر فيها أن الأسواق كانت تقام في كل يوم ما عدا الثلاثاء

---

(1) سهى إبراهيم محمد منصور، جامعة أكسفورد نشأتها وتطورها خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية،جامعة عين شمس، ٢٠٠٤-٢٠٠٥م، ص١٤٨.

(2) أورليان : جزيرة فرنسية تقع في خليج بسكاي، وتشكل جزء من الإقليم البحري وتقع على الشاطئ الجنوبي الفرنسي من منطقة La Rochelle، وشمال مصب الجارون. عنها انظر:
The New Encyclopaedia, Vol. VII, P. 517.

(3) مونبليه : هي عاصمة لإقليم Hérault جنوب فرنسا France. عنها انظر:
The New Encyclopaedia, Vol. VII, P.1.

(4) أفينون : هي عاصمة إقليم Vaucluse جنوب شرق فرنسا، على النقطة الواقعة على الضفة الشرقية لنهر الرون Rhone. عنها انظر:
The New Encyclopaedia, Vol.I, P. 682.

(5) محمد مرسي الشيخ، النظم والحضارة، ص١٠١.

والخميس[1]. وبالتأكيد فإن الأمر كان كما هو حادث الآن من أن هناك أماكن لم تتأثر بالثورة الصناعية وأخرى تأثرت بها بشكل كامل، ففي العصور الوسطى كذلك كان هناك مناطق لم تمسها حتى الثورة التجارية وأخرى كانت تجارية بالكامل. في هذه المناطق كانت التجارة تصل إليها عن طريق الباعة الجائلين والأسواق المؤقتة وأهمها المحلية. لذلك كان من المهم للمركز أن يكون له الحق في تأسيس سوق أو معرض[2].

على أن الأستاذ لوبيز Lopez، يرى أن الفرق بين السوق Market والمعرض Fair، في حوض البحر المتوسط ليس شيئا محددا بشكل قطعي، نظرا لأن كثيرا من المؤرخين في العصر الحديث يستخدمون كلمات Unudinae, Forum, Feria, Mercatum بشكل متبادل[3].

وقد ظهرت في أوروبا دوافع كثيرة للعمل على تنمية التجارة منها حماية القوى الإقطاعية والملكية التي اهتمت بزيادة مصادرها[4]. وتأسيس قومونات متحضرة[5]، فكان الازدهار مرتبطا بتطور التجارة وتنمية الإنتاج الزراعي والصناعي الذي أثمر زيادة عناصر النشاط ونتج عن زيادة عناصر هذا النشاط خلق أسواق جديدة ومعارض عظيمة حتى تحولت الحياة الاجتماعية بسبب الاحتياج للراحة أو للرفاهيات الجديدة[6]. إلى جانب ظهور الطبقة البرجوازية[7]، ونمو المدن وتطورها[8]. إضافة إلى تغير العقلية الريفية الهادفة

---

(1)Singman (J.L.) Dally life in Medieval Europe, London, 1999, P. 198.

(2)Lopez, Raymond, Medieval Trade, PP. 77 – 78.

(٣) Medieval Trade; P. 78.

(٤) عن التجارة وانتعاشها انظر: الفصل الأول، مبحث : انتعاش التجارة العالمية ، ص١٠٢-١١٧.

(٥) القومون Commune : يعني المدينة التي ارتبطت عناصر سكانها في حلف وحصلوا على استقلالهم عن طريق الثورة المسلحة، إلا أن المؤرخين درجوا على إطلاق هذا الاصطلاح على كافة المدن التي تمتعت بنفوذ سياسي واسع، عن ذلك انظر:
سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص ص١٠١-١٠٢.

(6)Boissonnade, Life and work; P. 161.

(7)Duby (G.), Mandrou (R.), Histore de la civilisation Moyen Age – XVI Siecle, Paris, 1968, PP. 184 – 185.

(8)Painter (S.), A History of the middle ages 284 – 1500, New York, 1954, P. 241.
لمزيد من التفاصيل عن دور المدن وأثر نموها وتطورها على نشأة الأسواق الأوروبية الكبرى. انظر الفصل الأول، المبحث الأول، ص٦٨-٨١.

إلى الاكتفاء الذاتي وتطلعها إلى الكسب المادي الذي تحققه التجارة[1].

وكان للتطور الذي شهدته أوروبا بعودة الاقتصاد التجاري إلى الظهور ثم ما كان من تضافر كل العوامل السابقة أكبر الأثر في زيادة إنتاجها وانفتاحها على العالم الخارجي، الأمر الذي استلزم ضرورة قيام المعارض التجارية الكبرى ذات السمة الدولية حتى تتلاءم مع هذا التطور، وبالتالي ضعف الأسواق المحلية دون اختفائها أو التقليل من شأنها. بمعنى أن النمو والتطور العمراني الذي شهدته أوروبا لم يتسبب في القضاء على الأسواق المحلية، وإنما أدى إلى تطوير عمليات التبادل التجاري داخل المدينة[2].

إذ نستطيع القول بأن العوامل التي أدت إلى نشأة الأسواق العالمية هي نفسها التي أثرت سلبا على الأسواق المحلية، وأدت إلى ضعفها وعجزها عن استيعاب هذا التطور التجاري الضخم الذي شهدته أوروبا فما كان منها إلا أن تراجعت لتفسح المجال للمعارض الدولية لتكون في الصدارة.

يتضح لنا ما سبق أن أوضاع أوروبا السياسية قد أثرت كثيرا على أوضاعها الاقتصادية، ففي ظل الاضطرابات والأخطار التي حاقت بها لجأت إلى ابتداع النظام الإقطاعي، ذلك النظام الذي جاء حلا وعلاجا، بل وإجراء طبيعيا لمواجهة تلك الفوضى والأخطار التي واجهت أوروبا في القرن التاسع الميلادي[3]. والذي في ظله لم تعد أوروبا في حاجة إلى أسواق لأن كل ضيعة التزمت بإنتاج ما يكفيها فحسب، لكن عندما أخذت أوضاع أوروبا في التغير نتيجة للإحياء التجاري وعودة ظهور التجار نتج عن ذلك انتشار الأسواق المحلية مرة أخرى. بل إن ما تمتعت به أوروبا في القرون التالية من انتعاشة اقتصادية كبيرة ناتجة عن تضافر عدة عوامل جعلتها لا تكتفي بتلك الأسواق المحلية، وإنما صارت في حاجة ماسة إلى معارض دولية تتواكب مع ما شهدته من تطور وانتعاش.

---

(1) ادوار بروي وآخرون، القرون الوسطى، ج٣، ترجمة يوسف أسعد داغر، فريدم داغر، ط١، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ١٩٦٥م، ص٤٠٣.

(2) ر. لوبيز، ثورة العصور الوسطى التجارية ٩٥٠-١٣٥٠، ترجمة/ محمود أحمد أبو صوة، منشورات ELGA، مالطا، ١٩٩٧م، ص١١٢.

عن المحلات والتسوق في أوروبا في بداية القرن الثالث عشر الميلادي انظر:

See: Armstrong (L.), Ivana (E.), Martin (M.), Money, Markets and Trade in late Medieval Europe, P. 491.

(3) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص٦٢.